سورة الذاريات

مكية، ستون آية وثلاثمائة وستون كلمة، ألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم. وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْواً} أي والرياح التي تذر، والتراب وغيره، وتهب في منازل القوم. {فَـٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْراً} أي فالسحب الحاملة للمطر. {فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْراً}، أي فالسفن الجارية في البحر جرياً ذا يسر. {فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْراً} أي فالملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. وهذا التفسير هو ما روي عن علي رضي الله عنه.

وقال الرازي: والأقرب أن هذه الأمور الأربعة صفات أربع للرياح.

فالذاريات: هي الرياح التي تنشىء السحاب أولاً.

والحاملات: هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه، التي إذا سحت جرت السيول العظيمة، وهي أوقار أثقل من جبال.

والجاريات: هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها الماء.

والمقسمات: هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار. {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَٰدِقٌ} أي إن وعدكم بالبعث والحساب لوعد صادق، {وَإِنَّ ٱلدِّينَ} أي الحساب والجزاء {لَوَاقِعٌ}، أي لحاصل، فالحساب يستوفي والعقاب يوفى، {وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ} أي ذات الحسن أو ذات الزينة، أو ذات الطرائق، وهي مسير الكواكب ومسلك النظار. {إِنَّكُمْ} يا معشر قريش {لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ}، أي منعكس وإنكم غير مجازين في اعتقادكم، فإنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنك تعلم أنك غير صادق في قولك وإنما تجادل ونحن نعجز عن الجدل، فكأنه تعالى قال لنبيه: إنك صادق ولست معانداً بل هم جازمون بأنك صادق، وإنما يظهرون الجزم بأمر لشدة عنادهم، فانعكس الأمر عليهم {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} قيل: هذا مدح للمؤمنين أي يصرف عن القول، المختلف من صرف عن ذلك القول ورشد إلى القول المستوي.

وقيل إن هذا ذم، أي يصرف عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن والحشر من قد صرف عن الهدى، وهو الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وأبي بن خلف، وأمية بن خلف ومنبه ونبيه {قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ} أي لعن الكذابون الذين لا يجزمون بأمورهم أصحاب القول المختلف. وهذا دعاء عليهم. وقرىء «قتل الخراصين» بالبناء للفاعل، أي قتل الله المقدرين ما لا صحة له، {ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ} أي في جهالة بأمر الآخرة {سَٰهُونَ} أي غافلون عما أمروا به، {يَسْأَلُونَ} أي بنو مخزوم بطريق الاستعجال استهزاء، {أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ}؟ أي متى يكون يوم الجزاء الذي نعذب فيه؟ قال تعالى: {يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ} أي يكون ذلك يوم هم يعرضون على النار ويحرقون بها، ويجوز أن يكون «يوم هم» خبراً لمبتدأ محذوف، وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني ويؤيده أنه قرىء بالرفع، أي هو يوم هم إلخ. وتقول لهم الزبانية: {ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ} أي حرقكم {هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} بالقول بطريق الاستهزاء، أو بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد. وقوله تعالى هذه الآية

داخل تحت القول المضمر، وهو إما مبتدأ أو بدل من فتنتكم، {إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ} جارية في خلال الجنات {ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَٰهُمْ رَبُّهُمْ} أي قابلين لما أعطاهم ربهم راضين من الجنات والعيون، {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ} أي قبل إعطاء الله الجنات لهم {مُحْسِنِينَ} في الدنيا بالقول والفعل.

{كَانُواْ قَلِيلاً مِّن ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} ف «ما» زائدة. وهذا تفسير للإحسان، أي كانوا ينامون في جزء قليل من الليل. وقيل: «ما» مصدرية و «يهجعون» بدل اشتمال من الواو، أي كان هجوعهم من الليل قليلاً، أو فاعل ل «قليلاً»، أي كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. وقيل: «ما» نافية، و «قليلاً» خبر «كان» وعلى هذا فالوقف عليه صالح كالوقف على يهجعون. والمعنى: كان عددهم قليلاً لا ينامون من الليل {وَبِٱلأَسْحَٰرِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} أي هم مع قلة نومهم وكثرة صلاتهم يداومون على الاستغفار في الأسحار، ويعدون أنفسهم مذنبين لوفور علمهم بالله تعالى. {وَفِى أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَ ٱلْمَحْرُومِ} أي هم لا يجمعون الأموال إلاّ ويجعلونها ظرفاً للحق، فيرون في أموالهم حقاً للذي يسأل العطاء من الناس وللمتعفف الذي يحسبه بعض الناس غنياً، فلا يعطيه شيئاً، فهو الّذي لا يسأل ولا يعطى، أي هم أوجبوا على أنفسهم بمقتضى الكرم أن يصلوا بأموالهم الأرحام والفقراء والمساكين، {وَفِى ٱلأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ}، أي وفي جهة السفل دلائل واضحة للموقنين على شؤونه تعالى، فإن الموقن لا يغفل عن الله تعالى في حال، ويرى في كل شيء آيات دالة على قدرته تعالى ووحدانيته، أما الغافل فلا يتنبَّه إلاّ بأمور كثيرة فيكون الكل له كآية واحدة، {وَفِى أَنفُسِكُمْ} أي وفي أنفسكم آيات دالة لكم على وحدانية الله تعالى وقدرته، إذ ليس في العالم شيء إلاّ وفي الأنفس له نظير، {أَفَلاَ تُبْصِرُونَ} أي ألا تنظرون الأرض وما فيها، والأنفس وما فيها، فلا تبصرون بعين البصيرة، {وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} أي رزقكم ووعدكم بالجنة والنار مكتوبة مقدرة في السماء. ويقال: هذا الخطاب مع الكفار فكأنه تعالى قال: وفي الأرض آيات للموقنين كافية، وأما أنتم أيها الكافرون ففي أنفسكم آيات تكفرون بها لحب الرئاسة، وحطام الدنيا، وفي السماء الأرزاق، فلو تأملتم حق التأمل لما تركتم الحق لأجل الرزق، فإنه واصل إليكم بكل طريق، ولاجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل من السماء، فأسباب الرزق من المطر والرياح، والحر والبرد، وغير ذلك مما هيَّأ الله تعالى به لمنافع العباد هي من جهة العلو، {فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}، أي إن ما ذكر من أمر الرزق والوعد بالثواب، والعقاب لحق مثل نطقكم، فكما لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي لكم أن تشكوا في حقيقة ذلك.

وقرأ حمزة والكسائي وشعبة «مثل» بالرفع. والباقون بالنصب لإضافته إلى مبني وهو «أنكم»، و «ما» مزيدة. {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ} أي ألم يأتك حديث ضيف إبراهيم الذي أكرمهم بخدمته لهم، وبالعجل.

قال عثمان بن محصن: كانوا أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل أخرجه أبو نعيم. {إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ} أي إبراهيم ظرف للحديث أو لما في الضيف من معنى الفعل، أو للمكرمين إن فسر بذلك المذكور. {فَقَالُواْ سَلَٰماً} أي نسلم سلاماً أو نبلغك سلاماً، {قَالَ} أي إبراهيم: {سَلَٰمٌ} أي سلام عليكم أو جوابه سلام أو أمري سلام، بمعنى مسالمة لا تعلق بيني وبينكم، لأني لا أعرفكم، أو قولكم سلام يدل على السلامة. وقرئا مرفوعين.

وقرأ حمزة والكسائي «سلماً» بكسر السين وسكون اللام بالنصب. {قَوْمٌ مُّنكَرُونَ} قال ابراهيم ذلك في نفسه كما قاله ابن عباس والمعنى: هؤلاء قوم غرباء لا أعرفهم وإنما أنكرهم إبراهيم عليه السلام، لأنهم ليسوا ممن عرف من الناس {فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ} أي ذهب إبراهيم إلى أهله في سرعة على خفية من ضيفه {فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ}، أي فذبح فتى من أولاد البقر، فحنذه، فجاء به إلى أضيافه {فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ} بأن وضعه عندهم ليأكلوا، فلم يأكلوا. {قَالَ} أي إبراهيم: {أَلاَ تَأْكُلُونَ} من الطعامٰ {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} أي فأضمر في نفسه خيفة منهم لظن أنهم لصوص، فلما عرفوا خوف إبراهيم {قَالُواْ لاَ تَخَفْ} منا يا إبراهيم إنا رسل ربك. قيل: مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه، فعرفهم، وأمن منهم، {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلَيمٍ} أي بولد عليم في صغره حليم وهو: إسحاق أو اسماعيل كما قاله مجاهد،

{فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ} أي أقبلت سارة على أهلها صائحة، لأنها كانت في خدمتهم، فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت، وأعرضت عنهم {فَصَكَّتْ وَجْهَهَا} أي لطمته من الحياء، كما جرت عادة النساء عند الاستحياء، أو التعجب {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ}. أي قالت سارة: أنا عجوز عاقر فكيف ألد؟ {قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ} أي قالت الملائكة، حكم ربك في الأزل مثل ذلك القول الذي أخبرناك به يا سارة فلا تعجبين منه، ف «كذلك» منصوب ب «يقال» الثانية على المصدر. {إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ} فيكون قوله حقاً وفعله متقناً، إذ الحكيم هو الذي فعله كما ينبغي لعلمه مع قصد ذلك. {قَالَ} أي إبراهيم: {فَمَا خَطْبُكُمْ} أي فما أمركم العظيم الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة فلعظمتكم لا ترسلون إلاّ في عظيم، {أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ} أتى إبراهيم عليه السلام بما هو آداب المضيف حيث يقول لضيفه إذا استعجل في الخروج: ما هذه العجلة وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ولا يسكت عند خروجهم، لأن سكوته يوهم استثقالهم {قَالُوۤاْ إِنَّآ أَرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} أي كافرين من قوم لوط، {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ} أي لننزل عليهم من السماء حجارة من طين، مطبوخ كالآجر بعد ما قلبنا قراهم.

قال السدي ومقاتل: كانوا ستمائة ألف، فأدخل جبريل جناحه تحت الأرض، فاقتلع قراهم، وكانت أربعة، ورفعها حتى سمع أهل السماء أصواتهم، ثم قلبها بأن جعل عاليها سافلها، ثم أرسل عليهم الحجارة، فتتبعت الحجارة مسافريهم وشذاذهم، أي المنفردين عن الجماعة {مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} أي مكتوباً على كل واحد من الحجارة اسم

واحـد مـن المجـاوزين الحـد فـي الفجـور، وذلـك إنمـا يعلمـه اللـه تعـالى، {فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا} أي في قرى قوم لـوط {مِـنَ ٱلْمُـؤْمِنِينَ} بلـوط، لإهلاك الكافرين فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك، فببركة المحسـن ينجو المسيء. {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَـا} أي فـي تلـك القـرى {غَيْـرَ بَيْـتٍ} واحـد {مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ}.

قال مجاهد: كان الناجون لوطاً وابنته. وقال قتادة: كانوا أهـل بيتـه. وقال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثـة عشـر {وَتَرَكْنَـا فِيهَـآ ءَايَـةً لِّلَّـذِينَ يَخَـافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمَ}، أي وتركنا في قريات قوم لوط علامة للمنتفع بها قيل: هي حجارة منضودة في ديارهم، وهي بين الشام والحجاز. وقيل: هي ماء أسود منتن خرج من أرضهم. وقيل: هـي نفـس القـرى الخربـة {وَفِـى مُوسَـىٰ} وهذا إما معطوف على «فيها»، والمعنى وتركنـا فـي قصـة موسـى آيـة، أو يقال: وجعلنا في قصة قوم لوط عبرة للخائفين حلول العـذاب فلا يقتـدون بفعلهم، وجعلنا في قصة موسى آية، وإما معطوف على قوله تعالى: {هَـلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرٰهِيمَ} وتقديره وفـي موسـى حـديث وهـذا مناسـب إذ جمع الله كثيراً بين ذكر إبراهيم وذكر موسى عليهمـا السـلام، {إِذْ أَرْسَـلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ} أي ببرهان قاطع حـاج بـه فرعـون، أو بمعجـزة فارقة بين سحر الساحر وأمر المرسلين كاليد والعصا، {فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِـهِ} أي فأعرض فرعون عن الإيمان به مع جنوده، أو فتقوى فرعون بـأقوى جنـده، وهو هامان، فإنه كان وزيره. {وَقَالَ} في شأن موسى: هذا {سَٰحِرٌ} تـأتيه الجن بسحره باختياره، {أَوْ مَجْنُونٌ} تقصده الجـن مـن غيـر اختيـاره، كـأن فرعون نسب الخوارق العجيبة إلى الجـن وتـردد فـي أنهـا حصـلت باختيـار موسى أو بغيره، {فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ} أخذ غضب وقهر، {فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَـمِّ} أي فأغرقناهم في البحر {وَهُوَ مُلِيمٌ}، أي والحـال أن فرعـون آت بمـا يلام عليه من الطغيان، {وَفِى عَادٍ} أي وفي قوم هود حديث، {إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ} أي المهلك وقاطع النسل وهو الـدبور، {مَـا تَـذَرُ مِـن شَـىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْـهُ كَـٱلرَّمِيمِ} أي مـا تـترك هـذه الريـح شـيئاً مـرت عليـه مقصوداً وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم إلاّ جعلته مثل التراب، أو مثل الشيء الهالك {وَفِى ثَمُودَ}، أي وفي قوم صالح حديث {إِذْ قِيلَ لَهُمْ}.

وقرأ هشام والكسائي بإشمام القاف والباقون بكسرها: {تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ} أي عيشوا وانتفعوا بالزرع والأبنية، وبلبن الناقة إلى أواخر آجالكم،

{فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} أي فجاوزوا الحد في الاستكبار عن الامتثال بأمر الله تعالى، فقتلوا ناقته، وأرادوا قتـل نـبيه صـالح عليـه السـلام {فَأَخَـذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ} أي النار التي فيها الصوت الشديد التي حملتهـا الريـح فأوصـلتها إلى مسامعهم.

وقرأ الكسائي «الصعقة» بإسكان العين بعد الصاد بدون ألف بينهما وهي المرة من الصيحة المهلكة، {وَهُـمْ يَنظُـرُونَ} أي وهـم يعـاينون النـار التي تنزل من السماء فيهـا رعـد شـديد، ولا يقـدرون علـى دفعهـا. ويقـال: أتاهم العذاب بعد إنذارهم بمجيئه بثلاثـة أيـام وهـم ينتظـرون مجيئـه،{فَمَـا ٱسْتَطَٰعُواْ مِـن قِيَـامٍ} أي فعجـزوا عـن فـرار مـن العـذاب {وَمَـا كَـانُواْ

مُنتَصِرِينَ} أي ممتنعين من العذاب بأبدانهم وبغيرهم، {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ}.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بالجر عطفاً على، وفي ثمود على معنى، وفي قوم نوح عبرة لكم من قبل ثمود وعاد وغيرهم، ويقويه قراءة عبد الله، وفي قوم نوح. والباقون بالنصب على تقدير: وأهلكنا قوم نوح من قبل، لأن ما تقدم دل على الهلاك.

وقرأ أبو السماك وابن مقسم وأبو عمرو في رواية الأصمعي بالرفع على الابتداء وخبر المبتدأ إما مقدر، أي أهلكناهم أو ما بعده وهو قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَٰسِقِينَ} أي خارجين عن الحدود في الكفر والمعاصي، {وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْدٍ} أي بقوة،

{وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} أي لقادرون ويحتمل أن يقال: إن هذا إشارة إلى المقصود الآخر وهو البعث للموتى من القبور، كأنه تعالى يقول: بنينا السماء وإنا لقادرون على أن نخلق مثلها. وقيل: إنا لموسعون الرزق على الخلق {وَٱلأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا}، أي بسطناها على الماء ليستقروا عليها، {فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ} أي فنعم الفارشون نحن {وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ} أي وخلقنا من كل جنس نوعين من الجوهر متضادين كالذكر والأنثى، أو متشاكلين، فإن كل شيء له نظير، كالعرش والكرسي، واللوح والقلم. {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} أي لكي تتعظوا فيما خلقه الله فتعلمون أن خالق الأزواج فرد لا كثرة فيه فتعبدونه، وأنه لا يعجز عن حشر الأجساد والأرواح، {فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ} أي إذا علمتم أن الله تعالى فرد لا نظير له وأن هذه المذكورة شؤونه، فاهربوا إليه بالطاعة كي تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه، {إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ} أي من الله تعالى {نَذِيرٌ مُّبِينٌ}، ففي الرسالة أمور ثلاثة: المرسل، والرسول، والمرسل إليه. فقوله تعالى: {لَكُمْ} إشارة إلى المرسل إليهم. وقوله تعالى: {مِنْهُ} إشارة إلى المرسل. وقوله تعالى: {نَّذِيرٌ} بيان للرسول وقوله تعالى: {مُّبِينٌ} إشارة إلى ما تعرف به الرسالة، لأن كل حادث له سبب، فلا بد للرسول من علامة يعرف بها وهي البرهان أو المعجزة، {وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ} بل وحدوا الله، فإن التوحيد بين التعليل والتشريك، فالمعطل يقول: لا إله أصلاً والمشرك يقول: في الوجود آلهة. تعالى: {فَفِرُّواْ إِلَى ٱللَّهِ} أثبت وجود الله. وقوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءاخَرَ} بل وحدوا الله، فإن التوحيد بين التعليل والتشريك، فالمعطل يقول: لا إله أصلاً والمشرك يقول: في الوجود آلهة. تعالى: {فَفِرُّواْ إِلَى ٱللَّهِ} أثبت وجود الله. وقوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءاخَرَ} نفى الأكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين. ولهذا قال الله تعالى مرتين: {إِنِّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي لا أقول شيئاً إلاّ بدليل ظاهر، فالرسول نذير من الله في المقامين عند الأمر بالطاعة، وعند النهي عن الشرك، وذلك ليعلم أن العمل لا ينفع إلاّ مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلاّ الجامع بينهما، {كَذَٰلِكَ} خبر مبتدأ محذوف، وقد فسر هذا الإبهام بما بعده، أي الشأن مثل ما ذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحراً، أو مجنوناً، {مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَٰحِرٌ أَوْ

مَجۡنُونٌ} أي ما أتى الأمم الأولين رسول من رسل الله، إلاّ وقـد قـالوا فـي حقه هو ساحر أو مجنون.

{أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ}. وهذا الاستفهام للتعجيب والتوبيخ والإنكار، أي أتواصى بهذا القول بعضهم بعضاً حـتى اتفقـوا عليـه، كـأن بعضـهم قـال لبعـض: لا تقولوا إلاّ هذا القول، أي كيف اتفقوا على قول واحد كـأنهم توافقـوا عليـه، أي ما وقع منهم وصية بذلك لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، {بَلۡ هُـمۡ قَـوۡمٌ طَاغُونَ} أي لم يكن ذلك عن التواطؤ وإنما كان لمعنـى جـامع هـو أن الكـل استغنوا بالأموال، فنسوا الله وجاوزوا الحد في العصـيان، فكـذبوا رسـلهم، {فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ} أي فأعرض يـا أشـرف الخلـق عـن جـدالهم بعـد مـا كـررت عليهم الدعوة، فأبوا إلاّ العناد {فَمَآ أَنتَ بِمَلُـومٍ} أي لا تحـزن فإنـك لسـت بملوم بسبب التقصير منكم وانما هم الملومون بالإعراض والعنـاد، {وَذَكِّـرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}، أي ولا تدع العظة فإنهـا تزيـد المـؤمنين قـوة في يقينهم {وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ} أي إلاّ ليقروا بالعبوديـة طوعاً أو كرهاً كما قاله ابن عباس، أي فإن الكافرين يقرون للعبودية، وهــو إظهار التذلل بالخلقة الدالـة علـى وحدانيـة اللـه تعـالى وانفـراده بـالخلق، واستحقاق العبادة دون غيـره، فـالخلق كلهـم عابـدون بهـذا الاعتبـار، أو إلاّ لآمرهم بالعبادة كما نقل عن علي بن أبي طـالب وهـي التعظيـم لأمـر اللـه والشفقة على خلق الله فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهمـا، واللام لام الحكمة، والسبب شرعاً.

وقال مجاهد: «إلاّ ليعرفوني» أي لأنه تعالى لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن ربه: «كنـت كنـزاً مخفياً فأردت أن أعـرف فخلقـت الخلـق لأعـرف». اه وعـبر بالعبـادة عـن المعرفـة لأنهـا وسـيلة إلـى المعرفـة أي أن اللـه خلـق الخلـق مسـتعدين لمعرفته مع كونها مطلوبـة منهـم، {مَآ أُرِيـدُ مِنۡهُـم مِّـن رِّزۡقٍ وَمَآ أُرِيـدُ أَن يُطۡعِمُـونِ} أي لسـت كالسـادة فـي طلـب العبـادة بـل هـم الرابحـون فـي عبادتهم والعبيد على قسمين: قسم منهم يكون للعظمة كمماليك الملـوك، فالملك يطعمهم ويسـقيهم ويعطيهـم الأطـراف مـن البلاد، والطـراف بعـد التلاد وقسم منهم للانتفاع بهم فـي تحصـيل الأرزاق ولإصـلاحها، فليتفكـروا في أنفسهم في كونهم مخلوقين للعبادة، هل هم من نـوع أن يطلـب منهـم تحصيل رزق، أو هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت، كالطباخ والخواني الذي يقرب الطعام وليسوا من هذا القسم بل هم عبيد من القسم الأول، فينبغي أن لا يتركوا التعظيم لأمر الله، {إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلـرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُـوَّةِ ٱلۡمَتِيـنُ} أي الثابت الذي لا يتزلزل، فلا يطلب الرزق لغناه عبد من عبـاده فـإنه يرزقهـم ولا يطلب منهم أن يعينوه علـى الأرزاق، لأنـه تعـالى قـوي وقرىء أنـي أنا الرزاق.

وقرأ ابن محيصن «هو الرازق»، كما قرأ «وفي السماء رازقكم». وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش المـتين بـالجر، {فَـإِنَّ لِلَّـذِينَ ظَلَمُـواْ ذَنُوبـاً مِّثۡـلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ} بفتح الذال، أي إذا عرفت حال الكفرة المتقدمين من عـاد وثمود، وقوم نوح فإن لهـؤلاء المكـذبين مـن كفـار مكـة نصـيباً وافـراً مـن

العذاب، مثل نصيب نظرائهم من الأمم السابقة، {فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ} أي فلا يطلبوا مني أن أعجل في المجيء بالعذاب، فلا يأتي الأجل ما لم يفرغ الرزق، {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ} أي فالشدة من العذاب لكفار مكة من أجل يومهم الذي يوعدون العذاب فيه، وهو يوم بدر كما هو الأوفق لما، تقدم أو يوم القيامة، وهو الأنسب بما في أول السورة الآتية.

سورة الطور

مكية، تسع وأربعون آية، ثمانمائة واثنتا عشرة كلمة، ألف وخمسمائة حرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَٱلطُّورِ} أي طور سينين، وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى، واسمه زبير أقسم الله به، {وَكِتَٰبٍ مُّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ} أي كتاب مكتوب في كاغد مبسوط، غير مطوي، وغير مختوم عليه وهو القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، أو هو التوراة المكتوبة في الألواح التي أنزلت على موسى، {وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ} وهو إما الكعبة أو بيت معمور بالناس الطائفين به، العاكفين، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة، أو الضراح، وهو في السماء بحيال الكعبة، يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يطوفون به ويصلون فيه، ثم لا يعودون إليه أبداً، {وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ} فوق كل شيء وهو السماء. وقيل: العرش، فإنه سقف الجنة، {وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ} أي الممتلىء وهو بحر فوق السماء السابعة تحت عرش الرحمٰن، يسمى بحر الحيوان، يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فينبتون في قبورهم. ويقال: هو بحر حار يصير ناراً.

روي أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة ناراً يسجر بها نار جهنم. {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} أي لنازل بشدة على مستحقه يوم القيامة، {مَّا لَهُ} أي العذاب {مِن دَافِعٍ} عنه {يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْراً} أي يوم تخرج السماء عن مكانها وتدور بأهلها دوراناً كدوران الرحا وتموج الخلائق بعضهم في بعض من الهول فيوم معمول لواقع، أو لدافع، أي ليس له دافع يوم تمور السماء {وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْراً}، أي تزول الجبال عن وجه الأرض، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل، ثم تصير كالصوف المندوف، ثم تطيرها الرياح فتصير هباء منثوراً. {فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ}، أي إذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع، فشدة عذاب إذاً للمكذبين للرسل الذين هم يلهون في أباطيل، فأفعالهم مثل أفعال الخائض في الماء فهو لا يدري أين يضع رجله. {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا} و «يوم» إما ظرف لقول مقدر بعده، أي يوم يدفعون إليها دفعاً عنيفاً يقال لهم: {هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} في الدنيا. وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعون دفعاً على وجوههم وزجاً أقفيتهم ويقولون لهم

توبيخاً: {هَٰذِهِ ٱلنَّارُ} إلخ. وإما بدل من يومئذٍ والمعنى: فويل يوم يقع العذاب للمكذبين وهو يوم يدعون أي المكذبون إلى النار والعامة على فتح الدال وتشديد العين مضمومة.

وقرأ علي والسلمي وأبو رجاء، وزيد بن علي بسكون الدال وفتح العين فيكون دعا حالاً من الواو، أي يوم ينادون مدعوعين بأن يقال لهم: هلموا إلى نار جهنم فادخلوها وتقول لهم الخزنة: هذه النار، {أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ}؟ أي فهذا العذاب الذي ترونه سحر كما كنتم تقولون في الدنيا للأنبياء هم سحرة أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر، أي هل في المرئي شك أم هل في بصركم خلل؟ فالذي ترونه حق وقد كنتم تقولون إنه ليس بحق. { ٱصْلَوْهَا} أي ادخلوا النار وقاسوا شدائدها، {فَٱصْبِرُوۤاْ أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ} أي فافعلوا ما شئتم من الصبر على عذاب النار وعدمه، {سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ} أي صبركم عليه وتركه سواء عليكم في عدم النفع {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فإن الجزاء حيث كان واجب الوقوع بحسب الوعد كان الصبر وعدمه سواء في عدم النفع.

{إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ} دائم {فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَٰهُمْ رَبُّهُمْ}، أي متلذذين بما أعطاهم ربهم. وقرأ الحسن وغيره «فكهين» بغير ألف، أي معجبين وقرىء «فاكهون» على أنه خبر إن أي ذوو فاكهة كثيرة بسبب إعطاء ربهم إياهم تلك، {وَوَقَٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ} عطف على ما آتاهم أي إنهم ناعمون بأمرين بما آتاهم ربهم، وبأنه وقَّاهم، أو عطف على «في جنات». فالمعنى إن المتقين أدخلهم ربهم جنات ونعيماً ووقاهم عذاب الجحيم فيقول الله لهم: {كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيئَاً} أي بلا تعب في تحصيل الطعام والشراب، وبلا داء في تناولهما وبلا خوف نفاد وبلا إثم {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} فلا من عليكم في هذا اليوم وإنما منتي عليكم في الدنيا إذ هديتكم ووفقتكم للأعمال الصالحة لأن هذا إنجاز الوعد، {مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ} حال من الضمير المستكن في خبر إن أي كائنون في جنات حال كونهم متكئين على نمارق على سرر موصولة بعضها إلى بعض {وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ} أي بنساء بيض عظام الأعين. فقوله تعالى: {وَزَوَّجْنَٰهُم} عطف على خبر «إن» وهو إشارة إلى أن المزوج هو الله تعالى يتولى الطرفين يزوّج عبيده بإمائه، ومن يكون كذلك لا يفعل إلاّ ما فيه راحة العبيد والإماء فهو إشارة إلى أن الحور العين في الجنات مملوكات بملك اليمن لا بملك النكاح، وإنما عدي بالباء إشارة إلى أن المنفعة في التزويج هنا للرجال فقط وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم، وأيضاً إن في التزويج معنى الإلصاق، وفي الباء كذلك، فكأن المعنى جعلناهم ملصقين بحور من غير عقد منهم.

وقرىء «بحور عين» على إضافة الموصوف إلى صفته. وقرىء «بعيس عين». {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} والموصول مبتدأ خبره ألحقنا بهم.

وقرأ أبو عمرو «وأتبعناهم ذرياتهم» بإسناد الفعل إلى المتكلم المعظم نفسه وبقطع الهمزة. والباقون «واتبعتهم» بإسناد الفعل إلى الذرية، وبهمزة وصل. قرأ نافع «ذريتهم» بالإفراد في الأولى والجمع في الثانية.

وقرأ ابن كثير والكوفيون بالإفراد فيهما وأبو عمرو بالجمع فيهما مع النصب بالكسرة، وابن عامر بالجمع فيهما والرفع في الأولى والنصب بالكسرة في الثانية، والذرية هنا محمولة على الآباء والأبناء معاً، أي إن المؤمن إذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه في العمل ابناً كان أو أباً بسبب الإيمان كما هو منقول عن ابن عباس وغيره، والله تعالى أتبع الولد الوالدين في الإيمان ولم يتبعه أباه في الكفر بدليل أن من أسلم من الكفار حكم بإسلام أولاده الصغار، ومن ارتد من المسلمين لا يحكم بكفر ولده، كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنه تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه» ثم تلا هذه الآية. فالآباء داخلون في اسم الذرية، ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة، فإن كان معها أخذ علم أو عمل كانت أجدر، فتكون ذرية الإفادة كذرية الولادة لقوله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب». {وَمَآ أَلَتْنَٰهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ} أي وما نقصنا شيئاً من درجة الأعلى لأجل إلحاق الأدنى به وهذا لإزالة وهم المتوهم أن ثواب الأعلى يوزع على من دونه. وقرأ ابن كثير «ألتناهم» بكسر اللام. والباقون بفتحها.

وقرأ ابن هرمز «آلتناهم» بمد الهمزة. وقرىء «لتناهم» بكسر اللام و «لَتناهم» بالفتح {كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهَينٌ} أي كل امرىء مرهون عند الله تعالى بعمله فإن عمل صالحاً فك نفسه، وإلا أهلكها فالعمل بمنزلة الدين الثابت حيث إن العبد مطالب بذكر العمل خيراً أو شراً ويقال: كل امرىء بما كسب دائم فإن أحسن ففي الجنة مؤبداً، وإن أساء ففي النار مخلداً، {وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ} أي زدناهم على ما كان لهم وقتاً بعد وقت بأنواع الفواكه، وأنواع اللحمان مما يشتهون فكل واحد من أهل الجنة يعطى في الجنة ما يشتهي وإن لم يطلبه.

{يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْساً} أي يتعاطون في الجنة خمراً هم وجلساؤهم بكمال الاشتياق، أو بتجاذب بعضهم إناء الخمر من بعض في شربها تجاذب ملاعبة لا تجاذب مخاصمة، وهو المؤمن وزوجاته وخدمه، {لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ} أي لا كلمة لغو ولا إثم بسبب شربها، أي بسبب زوال العقل ونهوض الغضب.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالبناء على الفتح في الاسمين. والباقون بالرفع. {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ} بالكؤوس وغيرها من التحف للخدمة {غِلْمَانٌ لَّهُمْ} وهؤلاء الغلمان يخلقهم الله في الجنة كالحور، ولذلك لم يقل تعالى غلمانهم وإنما قال: {غِلْمَانٌ لَّهُمْ} لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا، فيخاف كل من خدم أحداً في الدنيا أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً، {كَأَنَّهُمْ} في بياضهم وشدة صفائهم {لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ} مخزون مصون من الحر والبرد، {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ} في الزيارة {يَتَسَآءَلُونَ}، أي يسأل كل بعض منهم بعضاً آخر عن أمر الدنيا، وعن نعيم الجنة {قَالُوۤاْ} أي قال كل منهم: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ} أي قبل دخول الجنة {فِىۤ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ}، أي خائفين على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الإخوان فأخطأنا في ذلك. وقوله تعالى: {فِي أَهْلِنَا} متعلق بمحذوف حال من الضمير في مشفقين أي حال كوننا بين أهلينا في الدنيا،

أو بيـان ل «قبـل»، أي فـي وقـت اجتماعنـا مـع أهلنـا {فَمَـنَّ ٱللَّـهُ عَلَيْنَـا} بالمغفرة ودخول الجنة، {وَوَقَنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ} أي عذاب النار.

وقال ثعلب السموم: شدة الحر، أو شدة البرد في النهار {إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ} أي من قبل هذه الرحمة أي في الـدنيا {نَـدْعُوهُ} أي نسـأله الحفـظ من العذاب ونعبده، {إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ} أي الصادق في وعده لنا المحسن إلينـا، {ٱلرَّحِيمُ} بعباده المؤمنين.

وقرأ نافع والكسائي بفتح همزة «أنه» على تقدير كون اللام ملفوظاً بها. والباقون بكسرها استئنافاً علـى معنـى التعليـل، {فَـذَكِّرْ} أي عـظ يـا أشرف الخلق {فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} بـ النبوة ورجاحـة العقـل، {بِكَٰهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ} أي فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم لقولهم لك: أنت كاهن تخبر بمـا فـي الغد، ومجنون. {أَمْ يَقُولُونَ} أي بل أيقولـون أي كفـار مكـة هـو {شَـاعِرٌ} يتقول الكلام من تلقاء نفسه {نَّتَرَبَّـصُ بِـهِ رَيْـبَ ٱلْمَنُـونِ} أي ننتظـر بـذلك الشاعر تقلبات الزمان ونزول الموت، فإنه إن كان شاعراً فصروف الزمان قد تضعف ذهنه، فيتبين كساد شعره. وقالوا أيضاً: نـتربص مـوته فـإن أبـاه مات شاباً، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيـه، فلا نعارضـه الآن مخافـة أن يغلبنا بقوة شعره، وجملة «نتربص» نعت ل «شاعر». {قُلْ} يا أشرف الخلق لهؤلاء الكفار: {تَرَبَّصُواْ} أي انتظروا موتي وهذا أمر تهديد {فَـإِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ} أي فإني أتربص هلاككم، وقد أهلكـوا فـي يـوم بـدر وفي غيره من الأيام ويقال إن معنى هذه الآية أني أخاف المـوت ولا أتمنـاه لا لنفسي ولا لأحد وإنما أنا نذير، فتربصـوا مـوتي وأنـا متربصـة ولا يسـركم ذلك لعدم حصول ما تتمنون بعدي، {أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُـمْ بِهَٰـذَآ أَمْ هُـمْ قَـوْمٌ طَاغُونَ} أي أتأمرهم عقولهم بهذا المقال المتناقض فإنهم قـالوا فـي حـق الرسول: هو كاهن مجنون شـاعر، فـإن الكـاهن ذو دقـة نظـر فـي الأمـور، والمجنون مختـل فكـره، والشـاعر ذو كلام مـوزون متسـق، فكيـف يجتمـع أوصاف هؤلاء في واحد بل هم قوم مجاوزون الحدود في العناد لا يحومـون حول السداد. ولذلك يقولون: أكاذيب خارجـة عـن دائـرة العقـول. وقرىء «بل هم». {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ} أي بل يقولون: كذب محمد في القرآن مـن عنـد نفسـه وليـس بشـعر ولا كهانـة ولا جنـون، {بَـل لاَّ يُؤْمِنُـونَ} بـ القرآن استكباراً {فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ} أي فليجيئوا بكلام مثل القرآن في البلاغة، وصحة المعاني، والإخبار بالمغيبات من تلقاء أنفسهم، فإنهم مثل محمد في البشرية والعربية، {إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ} فيمـا قـالوا فـإن صـدقهم فـي ذلـك يسـتلزم قـدرتهم علـى الإتيـان بمثلـه، ففيهـم الشـعراء البلغـاء، والكهنـة الأذكياء، ومن يرتجل القصائد، ويقص القصص.

{أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ}؟ أي أوجدوا من غير خالق، فلذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الإيجاد، وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الأول.

وقال ابن كيسان: أم خلقوا لغير شيء من عبادة وجزاء، فخلقوا عبثاً، وتركوا سدى فلا إعادة. وقيل: أي من غير أب وأم، فهم كالجماد لا يعقلـون ولا يقيم الله عليهم حجة، أليس قد خلقوا مـن نطفـة وعلقـة ومضـغة؟ {أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُـونَ} لأنفسـهم فلا يـأتمرون لأمـر اللـه ولا يعبـدون اللـه، وهـم لا يقولون ذلك، فإذا أقروا أن ثمَّ خالقاً غيرهم فما الذي يمنعهم من الإقرار له

بالعبادة ومن الإقرار بأنه قادر على البعث {أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ} ف «أم» للاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، أي ما خلقوا السمٰوات والأرض بل لا يوقنون بأن الله واحد، فإذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السمٰوات والأرض؟ قالوا: الله وهم غير موقنين بما قالوا، وإلاَّ لما أعرضوا عن عبادته، أي لما لم ينشأ من إيقانهم بالله أثر وهو الإقبال على عبادته جعل إيقانهم كالعدم فنفي عنهم. وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أي إنهم كما طعنوا فيك يا أشرف الخلق طعنوا في خالقهم. {أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُسَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ}، و «أم» استفهام إنكاري أي أعندهم خزائن رحمة الله حتى يرزقوا النبوة من شاءوا، أم عندهم خزائن علم الله بالغيب حتى يختاروا للنبوة من شاءوا، أم هم الغالبون على الأمور يدبرونها كيف شاءوا، أم لهم مصعد إلى السماء يستمعون ما يوحى إلى الملائكة من علم الغيب حتى يعلموا أن محمد ليس برسول، وأن كلامه ليس بمرسل، أي أنتم لستم بخزنة الله، ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها، ولا أنتم اجتمعتم بهم لأنهم ملائكة ولا صعود لكم إليهم. {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ} أي إذا ادعوا الإستماع من الملائكة فليأت مدعي الاستماع بحجة واضحة تصدق دعواه، {أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ} أي أتزعمون أن لله تعالى البنات ولكم البنون خاصة لتكونوا أقوى منه تعالى، فتكذبوا رسوله وتردوا قوله من غير حجة، فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكمٰ {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً} أي أجر الدنيا من مال، أو غيره على تبليغ الرسالة {فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} أي فهم لذلك الأجر من التزام غرامه محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك {أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} أي هل عندهم علم ما غاب عنهم فهم يكتبون ما غاب عنهم حتى يمكنهم منازعة محمد، أي هل صاروا في درجة محمد حتى استغنوا عنه وأعرضوا {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ} والمعنى: أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجراً، فتثقلهم عن الإتباع، أم عندهم الغيب فلا يحتاجون إليك، فيعرضون عنك أم ليس لهم شيئاً من هذين الأمرين بل يريدون العذاب بغتة من حيث لا يشعرون، فالذين كفروا معذبون. {أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ} يمنعهم من عذاب الله {سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي عن الذي يشركون من الولد ومن مثل الآلهة، لأنهم كانوا يقولون: البنات لله، وكانوا يقولون: هو تعالى مثل ما يعبدونه، {وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَٰقِطاً يَقُولُواْ سَحَٰبٌ مَّرْكُومٌ} أي لو عذبنا كفار مكة بنزول قطع من السماء عليهم لم ينتهوا عن طغيانهم، ولم يرجعوا عن عنادهم ولقالوا في هذا النازل إغاظة لمحمد: هذا سحاب تراكب بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا أنه قطعة نازلة للعذاب، {فَذَرْهُمْ} أي إذا تبين أنهم لا يرجعون عن الكفر فاتركهم على شر أحوالهم، {حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ} أي يهلكون بالقتل يوم بدر.

وقرىء «يلقوا». وقرأ ابن عامر وعاصم «يصعقون» بضم الياء مبنياً للمفعول، وباقي السبعة بفتحها مبنياً للفاعل. وقرأ أبو عبد الرحمٰن بضم الياء وكسر العين. {يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} أي يوم لا يدفع عنهم مكرهم في مناصبتهم يوم بدر شيئاً من الهلاك {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} أي ولا

يمنعون من القتل والأسر النازلين بهم في ذلك اليوم، {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ} أي إن لهؤلاء الظلمة بعبادتهم الأوثان {عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ} أي قبل ما لاقوه من القتل يوم بدر، وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين. وقرىء دون ذلك قريباً {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أن العذاب يلاقوه. {وَ ٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} بإبقائك فيما بينهم مع مقاساة الأحزان {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} أي بمنظر منا وفي حفظنا، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} من موضعك أي حين تعزم على القيام وقد ورد في الخبر: «إن من قال سبحان الله من قبل أن يقوم من مجلسه يكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللغط واللغو في ذلك المجلس». {وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ} فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء {وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ} أي وقت الصبح حين يذهب ضياؤها بضوء الشمس.

سورة النجم

مكية، اثنتان وستون آية، وثلاثمائة وستون كلمة، وألف وأربعمائة وخمسة أحرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ} أي والقرآن إذا نزل. وهذا استدلال بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم الدالة على صدقه، أو والنجوم التي هي ثابتة للاهتداء إذا سقطت إلى أسفل، وفائدة تقييد القسم بالنجم بوقت هويه أنه إذا كان في وسط السماء لا يهتدي به الساري، لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال، فإذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال، {مَا ضَلَّ صَـٰحِبُكُمْ} أي ما عدل سيدكم يا معشر قريش عن الطريق المستقيم، أو ما جن مصاحبكم محمد، {وَمَا غَوَىٰ} أي وما أعتقد باطلاً قط بل هو رشيد مرشد، دال على الله تعالى {وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ} أي ولم يتكلم بالقرآن عن هوى نفسه، وعن رأيه أصلاً، {إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَىٰ} أي ما القرآن إلاّ وحي من الله يوحى أي يجدد إيحاؤه إليه صلى الله عليه وسلم وقتاً بعد وقت. ويقال في معنى هذه الآية: ما جن محمد وما مسه الجن، فليس بكاهن، وليس بينه وبين الغواية تعلق، فليس بشاعر، وما قوله إلاّ وحي، وليس بقول كاهن ولا شاعر، {عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ} أي علم النبي الوحي ملك شديد القوة بالبدن، وهو جبريل عليه السلام.

روي أنه جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا محمد ما بعثت إلى نبي قط أحب إلي منك، ألا أعلمك أسماء الله عز وجل هن أحب أسمائه أن يدعى بهن قل: يا نور السمٰوات والأرض، يا جبار السمٰوات والأرض، يا عماد السمٰوات والأرض، يا بديع السمٰوات والأرض، يا قيام السمٰوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا صريخ المستصرخين، يا غياث المستغيثين، يا منتهى العابدين، ويا أرحم الراحمين، فيزول بك كل حاجة». {ذُو مِرَّةٍ} أي قوة في العقل، {فَ ٱسْتَوَىٰ} و «الفاء» للسببية أي فاستقام جبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم وهو بحراء فخرَّ مغشياً عليه دون الصورة التي كان يتمثل

بها كلما هبط إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالوحي وذلك أن رسول الله أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها، فإن التشكل بشكله الذي فطر عليه يتسبب من شدة قوته وقدرته على الخوارق، {وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ} أي والحال أن جبريل في الجانب الشرقي فسد المشرق لعظمته.

وقال الرازي: والظاهر أن المعنى ارتفع محمد بالمكان وهو بالمكان الأعلى رتبة في رفعة القدر، لا حقيقة في الحصول في المكان، فإنه صلى الله عليه وسلم بلغ الغاية وصار نبياً وهو واصل إلى الأفق الأعلى الفارق بين المنزلتين، {ثُمَّ دَنَا} أي بعد ما مدَّ جبريل جناحه وهو بالأفق الأعلى عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي صلى الله عليه وسلم {فَتَدَلَّىٰ} أي فنزل من الأفق الأعلى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه حتى أفاق وسكن روعه صلى الله عليه وسلم، ويقال: دنا جبريل من النبي فبقي متدلياً من الهواء واقفاً بين السماء والأرض، فإن التدلي هو التعلق من الهواء، {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ} أي فكان مقدار جبريل والنبي مقدار قوسين، بل أقرب من ذلك بنصف قوس، {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ}، أي فأوحى الله إلى جبريل ما أوحى جبريل إلى كل رسول، فإن جبريل أمين لم يخن في شيء مما أوحي إليه.

{مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} أي صدق فؤاد محمد فيما رأى شيئاً من صورة جبريل، ومن الله تعالى ليلة المعراج، ومن الآيات العجيبة الإلهية أي إن قلبه صلى الله عليه وسلم لم يقل إن المرئي خيال لا حقيقة له، ولم يقل: إنه جني أو شيطان، ويحتمل أن يقال: لم يكذب جنس الفؤاد ما رأى صلى الله عليه وسلم ببصره بأن يقول كيف يرى الله وهو ليس في مكان ولا جهة، وليس على هيئة، أو كيف يرى جبريل مع أنه ألطف من الهواء، والهواء لا يرى، فرؤية الله تعالى رؤية جبريل على ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم جائزة عند من له قلب، فالفؤاد لا ينكر ذلك وإن كانت النفس المتوهمة تنكره.

وقرأ هشام «ما كذب» بالتشديد، أي إن ما رآه محمد بعينه صدقه بقلبه، أي ما قال فؤاده لما رآه بصره لم أعرفك، و «ما» مفعول به موصولة، والعائد محذوف، وكذا قيل في قراءة التخفيف. وقيل فيه على إسقاط الخافض أي فيما رآه {أَفَتُمَٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ} أي أفتجادلونه يا معشر المشركين على ما قد رأى وقرأ الأخوان «أفتمرونه» بفتح التاء وسكون الميم، أي أفتنكرونه. وقرأ عبد الله بن مسعود والشعبي بضم التاء وسكون الميم أي أفتجدونه شاكاً فيما رأى، {وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ} أي وبالله لقد رأى محمد جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى عند شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش، وهو موضع لا يتعداه ملك ولا روح من الأرواح. قال مقاتل: وهي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان، لو وضعت ورقة منها في الأرض لأضاءت لأهلها، وهي شجرة طوبى {عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ} أي الجنة التي يأوي إليها المتقون وأرواح الشهداء {إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ}، و «إذ»

ظرف ل «رآه»، أي ولقد رآه عند السدرة وقت علاها ما علاها من فراش من ذهب، أو من ملائكة يأتونها كأنها طيور، أو من أنوار الله تعالى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها، وظهرت الأنوار، {مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ} أي ما التفت محمد إلى الجراد ولا إلى غيره، وما جاوز إلى ما سوى الله تعالى، أو ما محمد عن الأنوار وما طلب شيئاً غيرها، بل اشتغل بمطالعتها مع أن في ذلك العالم من العجائب ما يحير الناظر، {لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ} أي والله لقد رأى من عجائب الملك والملكوت ما لا تحيط به العبارة {أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلأُخْرَىٰ} أي ومناة المتأخرة الذليلة، أي الوضيعة المقدار. وذلك لأن اللات كان وثناً على صورة آدمي وهو لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة والعزى صورتها صورة شجرة سمرة لغطفان، ومناة صورتها صورة صخرة كانت لخزاعة ولهذيل بقديد. فالآدمي أشرف من النبات، وهو أشرف من الجماد وهو متأخر، فالمناة في أخريات المراتب. والمعنى: لما ذكر الله تعالى عظمة آياته في ملكوته وهي أن رسول الله إلى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته، ويهلك المدائن بقوته لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته. قال: أفرأيتم هذه الأصنام مع حقارتها شركاء الله مع ما تقدم ويقال: أفتظنون أن عبادتكم اللات والعزى الأخرى، ومناة الثالثة في الدنيا تنفعكم في الآخرة. {أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلأُنثَىٰ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ} أي كيف جعلتم لله تعالى بنات وقد اعترفتم في أنفسكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فكيف جعلتموه ناقصاً ونسبتم إلى أنفسكم الكامل، فنسبتكم البنات إلى الله تعالى قسمة جائزة على طريقتكم حيث نسبتم إلى أنفسكم الأعظم من الثقلين، وأبغضتم البنات ونسبتموهن إلى الأعظم وهو الله تعالى، وكان على عادتكم أن تجعلوا الأعظم للعظيم وإلا نقص للحقير، فإذا أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التي هي لكم، {إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم} أي ما هذه الأصنام المذكورات إلاّ أسماء خالية عن المسميات وضعتموها أنتم وآباؤكم فإنكم قلتم: إنها آلهة وليست بآلهة {مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ} أي ما أنزل الله بهذه الأسماء من حجة فوضع الاسم لا يجوز إلاّ بدليل نقلي أو عقلي، {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلأَنفُسُ} أي ما يتبع الكافرون في تسمية الأصنام آلهة إلا توهم أن ما هم عليه حق، وإلاّ ما دونه مما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء {وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ} أي البيان بالكتاب المنزل والمرسل أن الأصنام ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلاّ لله الواحد القهار {أَمْ لِلإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ} أي اللإنسان ما اشتهاه من شفاعة الأصنام وغيرها أوهل له أن يعبد بالاشتهاء فيعبد ما لا يستحق العبادة.

{فَلِلَّهِ ٱلآخِرَةُ وٱلأُولَىٰ} أي إن اختار الإنسان معبوداً على ما اشتهاه فيعاقبه على فعله في الدنيا وإلاّ فيعاقبه في الآخرة {وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لاَ تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ} أي وكثير من الملائكة مع علو منزلتهم لا تنفع شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله في الشفاعة فيمن يشاء ويرضى، وهو العابد الشاكر،

لا المعاند الكافر، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر فكيف تقبل شفاعة الجمادات، {إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ} أي بأحوال يوم القيامة {لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ} ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنهم لما بين لهم أن أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم إلاّ بالإذن قالوا: نحن لا نعبد الأصنام لأنها جمادات وإنما نعبد الملائكة بعبادتها فإنها على صورها ننصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد الغائب، فنعظم الملك الذي ثبت أنه مقرب عظيم. الشأن فقال تعالى رداً عليهم: كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الإناث حيث قلتم: الملائكة بنات الله. {وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ} وهذه الجملة حال من فاعل «ليسمون»، أي ليسمون الملائكة بالبنات والحال أنه لا علم لهم بما كانوا يقولون أصلاً.

وقرىء «بها» أي بالتسمية، أو بالملائكة. {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ} في أن الملائكة إناث، {وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا} أي لا ينفع شيئاً من العلم بحقيقة الشيء والظن يتبع في الأمور المصلحية والأفعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول إلى اليقين، ومدح من حاله لا يعلم، فالظن فيه معتبر، والأخذ بظاهر حال العاقل واجب، وأما في الاعتقاديات فلا يغني الظن شيئاً من الحق، فإن المكلف يحتاج إلى يقين يميز الحق من الباطل ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير، ففي الحق ينبغي أن يكون جازماً، والظان لا يكون جازماً، ويحتمل أن المراد من الحق هو الله تعالى. والمعنى: وأن الظن لا يفيد شيئاً من الله تعالى، فإن الأوصاف الإلهية لا تستخرج بالظنون {فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا} أي اترك مجادلة من أعرض عن القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين المذكور لأمور الآخرة قاصراً نظره إلى الدنيا. وهذه الآية غير منسوخة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالدعاء بالحكمة، والموعظة الحسنة فلما عارضوه بأباطيلهم أمر بالجواب عنها بالمجادلة، ثم لما لم ينفع أمر بالإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالبرهان، أي وأمر بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقاتلة {ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ} أي ذلك الظن غاية ما يبلغون به من الإدراك المتظلم للظن الفاسد، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ} أي إن الله أعلم بمن لم يرجع إلى الهدى أصلاً، وبمن يقبل الاهتداء في بعض الأحوال، وقد علم الله أنه لا يؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين وإنما ينفع فيهم أن يقع السيف والقتال، فأعرض عن الجدال وأقبل على القتال. {وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ} أي خلقاً وملكاً والوقف هنا تام عند أبي حاتم {لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟} أي بعقاب ما عملوا من الضلال {وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟} أي اهتدوا {بِٱلْحُسْنَى} أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة. وقوله تعالى: {لِيَجْزِىَ} متعلق بقوله: {ضَلَّ} و {ٱهْتَدَىٰ} كأنه تعالى قال: هو يعلم بمن ضلّ واهتدى ليجزيهما، أو متعلق بقوله تعالى فأعرض، أي أعرض عنهم ليقع الجزاء.

{ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ}. وهذا الموصول بدل من الموصول الثاني، وقرأ حمزة والكسائي «كبير الإثم» {وَٱلْفَوَٰحِشَ}.

قيل: الكبائر: ما وعد الله عليه بالنار صريحاً وظاهراً، والفواحش: ما أوجب الله عليه حداً في الدنيا {إِلاَّ ٱللَّمَمَ} وهو ما يقصده المؤمن ولا يحققه، أو ما يأتي به المؤمن ويندم في الحال، {إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ} حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، وهذا تنبيه على أن إخراج اللحم عن حكم المؤاخذة به ليس لخلوه عن الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِّنَ ٱلأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ} أي هو تعالى أعلم بأحوالكم يعلمها حين ابتدأ خلقكم من تراب، فإن كل واحد أصله من التراب فإنه يصير غذاء، ثم يصير دماً، ثم يصير نطفة وحين صوَّركم في الأرحام. وهذا تنبيه على كمال العلم والقدرة فإن بطن الأم في غاية الظلمة ومن علم بحال الجنين في بطن الأم لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد { ٱتَّقَىٰ} أي إذا كان الأمر كذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكلية على سبيل الإعجاب أو الرياء ولا تقولوا لمن لا تعرفون حقيقته نحن خير منك، ولا تقطعوا أيها المؤمنون بخلاصكم من العذاب فإن الله أعلم بمن أطاع وأخلص العمل، أما على سبيل الاعتراف بالنعمة فجائز، وذلك بأن أعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة بتوفيق الله ولم يقصد بذلك الاعتراف بالمدح. وهذا لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر {أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ} أي أفرأيت الذي أدبر عن الإيمان وأعطى شيئاً قليلاً من المال المسمى وقطع العطاء. قيل: نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة كان يجلس عند النبي صلى الله عليه وسلم وسمع وعظه وأثرت الحكمة فيه تأثيراً قوياً: فقال له رجل من المشركين لم تركت دين آبائك؟ فقال: أخشى عذاب الله. فقال له: لا تخف وأعطني كذا، وأنا أتحمل عنك العذاب، فتولى الوليد عن الوعظ وسماع الكلام من النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه الوليد بعض المشروط وبخل بالباقي فلا يبقى بالعهد ولا يحصل بذلك حمل الوزر، {أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ} أي أعنده علم بالأمور الغيبية فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ذنوبه يوم القيامة {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} أي بل لم يخبر بالخبر الذي كان في التوراة وفي صحف إبراهيم الذي بالغ في الوفاء بما عاهد الله تعالى أنه لا تحمل نفس حمل نفس أخرى، أي أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره. وعن ابن عباس قال: كانوا قبل إبراهيم يأخذون الرجل بذنب غيره، فكان أهل المقتول إذا ظفروا بأبي القاتل أو ابنه، أو أخيه أو عمه، أو خاله قتلوه حتى نهاهم إبراهيم عن ذلك وبلغهم عن الله أن لا تزر وازرة وزر أخرى، {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَٰنِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ} أي وأنه ليس الإنسان يوم القيامة إلاَّ ما عمل في الدنيا من خير وشر، فإن حسنة الغير لا تفيد نفعاً وإن المسيء لا يجد حسنة الغير ثواباً ولا يتحمل عنه أحد عقاباً، {وَأَنَّ سَعْيَهُ} أي عمله من خير وشر {سَوْفَ يُرَىٰ} أي يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة في ديوانه وميزانه، {ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلأَوْفَىٰ} ثم يجزي الإنسان سعيه بالجزاء الأتم. {وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ} أي المرجع بعد الموت، وعند ذلك يجازي الرب الشكور ويجزي الكفور، والقراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على ما، فهذا

في الصحف أيضاً وهو الحق، فالمخاطب به موسى وإبراهيم على التوزيــع. وقرىء بالكسر على الابتداء، فالمخاطب بهذا إما عام وهو كـل سـامع فهـو تهديد للمسيء وحث للمحسن، أو خاص وهو النبي صلى الله عليـه وسـلم، ففي هذا تسلية لقلبه كأنه تعالى قال: لا تحزن فإن المنتهى إلى الله {وَأَنَّـهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ} فكل ما يعمله الإنسان بخلقه حتى الضحك والبكاء.

قيل: إن الله تعالى خصَّ الانسان بالضحك والبكاء، والقرد يضحك ولا يبكي، والإبل تبكـي ولا تضـحك، {وَأَنَّـهُ هُـوَ أَمَـاتَ وَأَحْيَـا} أي خلـق المـوت والحياة فلا يقدر على الإماتـة والإحيـاء غيـره تعـالى {وَأَنَّـهُ خَلَـقَ ٱلزَّوْجَيْـنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ} أي تهراق في رحم الأنثى، {وَأَنَّ عَلَيْهِ} تعالى {ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُخْرَىٰ} أي نفخ الروح كما قال تعـالى هنالـك: {ثُـمَّ خَلَقْنَـا ٱلنُّطْفَةَ} أي نفخ الروح بعد خلق النطفة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءة بفتح الشين وبعدها ألف ممدودة قبل الهمزة، {وَأَنَّـهُ هُـوَ أَغْنَـىٰ} أي أغنـى الناس بلبـن الأم وبنفقـة الأب فـي صـغره، {وَأَقْنَـىٰ} أي وأعطـاه الأمـوال بالكسب بعد كبره، فكل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء، وكل مـا زاد عليـه فهو إقناء.

{وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ} وهي نجم مضيء وتسمى الشعرى العبور وهي تطلع بعد الجوزاء في شدة الحر وتسمى الشعرى اليمانية، وكـانت خزاعـة تعبدها وتعتقد تأثيرها في العالم، وهي المرادة في هذه الآيـة دون الشـعرى الشامية المسماة بالشعرى الغميصاء وهي التي فـي الـذراع. وهـذا إشـارة إلى فساد قـول قـوم، فـإن بعـض النـاس قـال: إن الفقـر والغنـى بكسـب الإنسان واجتهاده فمن كسب استغنى ومن كسل افتقر، وبعضهم قــال: إن ذلك بالبخت وذلـك بـالنجوم، فردهـم اللـه تعـالى بقـوله هـو تعـالى محـرك النجوم ورب معبودهم الشعرى العبور، {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلأُولَىٰ} وهي قوم هود. وسميت أولى لتقدمها في الزمان على عـاد الثانيـة، الـتي هـي ثمـود، قوم صالح.

وقرأ نافع وأبو عمرو بإسقاط نون التنوين لالتقـاء السـاكنين، وبنقـل حركة همزة أولى إلـى اللام. وقـرأ قـالون كـذلك لكـن بقلـب الـواو همـزة ساكنة. وقرأ الباقون بكسـر نـون التنـوين لالتقـاء السـاكنين وسـكون اللام وبعدها همزة مضمومة، {وَثَمُودَ} عطـف علـى عـاد. وقـرأ عاصـم وحمـزة بغير تنوين للدال في الوصل وبسكون الدال في الوقف. والباقون بـالتنوين في الوصل وبالوقف على الألف {فَمَآ أَبْقَىٰ} أي فما أبقى مـن عـاد وثمـود أحداً، {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ} أي أهلكهم من قبل الفريقين {إِنَّهُمْ كَـانُواْ هُـمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ} من الفريقين حيث يبتدئون بالكفر ويتجاوزون في المعاصي فإنهم كانوا يؤذون نوحاً عليه السلام، ويضربونه حتى يغشى عليه، وينفرون الناس عنه، ويحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه، والباديء أظلم و «من سـن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل عمل بهـا» {وَ لْمُؤْتَفِكَـةَ أَهْـوَىٰ} أي أسقط قريات لوط، وسدوم، وصادوم، وعمورا، وصوائم إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السـماء علـى جنـاح جبريـل عليـه السـلام بـأمره جبريـل بـذلك. {فَغَشَّٰهَا مَا غَشَّىٰ} أي فكساها الله تعالى أمراً عظيماً من فنـون العـذاب، {فَبِأَىِّ آلاۤءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ} أي تتشكك في أي أنعم ربك أيها الإنسـان أي لمـا

عد الله تعالى من أنواع النعم وهو الخلق من النطفة، ونفخ الروح فيه والإغناء والإقناء وذكر أن الكافرين أهلكهم، قال: فبأي آلاء ربك تتمارى فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل، {هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ} أي هذا النبي رسول كالرسل قبله يرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم، والله تعالى لما بيَّن الوحدانية بقوله تعالى: {فَبِأَيِّ الاء رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ} أشار إلى اثبات رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: {هَٰذَا نَذِيرٌ} إلخ، ثم أشار إلى القيامة بقوله: {أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ} أي قربت الساعة التي يزداد كل يوم قربها، فهي كائنة قريبة وازدادت في القرب، {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ} أي ليس للساعة نفس قادرة على إظهار وقتها إلاّ الله تعالى، {أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} أي أتعجبون إنكاراً من هذا القرآن أو من حديث حشر الأجساد بعد الفساد، {وَتَضْحَكُونَ} استهزاء من القرآن، أو أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قريب، {وَلاَ تَبْكُونَ} مما في القرآن من الزجر والتخويف وكان حالقكم أن تبكوا منه، {وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ} أي معرضون أو مستكبرون، {فَ ٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَ ٱعْبُدُواْ} أي وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزل القرآن، واعبدوه ولا تعبدوا غيره، لأن عبادة غيره تعالى ليست بعبادة.

سورة القمر

وتسمى سورة اقتربت. مكية، خمس وخمسون آية، وثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة، وألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً

)بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. {ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ} أي دنا قيام الساعة بخروج محمد صلى الله عليه وسلم، {وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ} نصفين من علامات قرب الساعة.

روى أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما {وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً} أي عظيمة {يُعْرِضُواْ} عن الإيمان بها {وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} أي هذا سحر دائم يأتي به محمد على مر الزمان، أو قوي لا يمكن إزالته. وقيل: أي مار يزول ولا يبقى. وقيل: أي شديد المرارة فلا نقدر أن نسيغه كما لا نسيغ المر. وقرىء «وإن يروا» على البناء للمفعول، {وَكَذَّبُواْ} بالآية بكونها دالة على صدق الرسول، {وَ ٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ} أي فقالوا: إنه سحر القمر أو سحر أعيننا، {وَكُلُّ أَمْرٍ} من الخير والشر {مُّسْتَقِرٌّ} فكل عامل يرى في الآخرة أثر عمله. وقرىء «مستقر» بالجر صفة ل «أمر» ف «كل» عطف على الساعة، أي اقتربت الساعة وكل أمر مستقر، {وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} أي وبالله لقد جاءهم في القرآن كائناً من أخبار الأمم الماضية المهلكين ما فيه ازدجار. وقرىء «مزجر» بقلب تاء الافتعال زاياً وإدغامها فيه.

وقرأ زيد بن علي «مزجر» بصيغة اسم الفاعل ذو زجر. {حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ} أي لا خلل فيها بدل من «ما». وقرىء بالنصب حالاً منها {فَمَا تُغْنِى ٱلنُّذُرُ} و «ما» إما نافية. والمعنى: إن الرسل لم يبعثوا ليلجأوا قومهم إلى الحق

وإنما أرسلوا مبلغين وإما استفهامية، والمعنى: إنك يا أشرف الرسل أتيت بما عليك من الدعوة وإظهار الآية عليها، فكذبوك، فأنذرتهم بما جرى على المكذبين، فلم يفدهم إنذارك فهذه حكمة بالغة، فأيّ شيء من الأمور النافعة غير هذا تحصله فلم يبق عليك شيء آخر، {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} أي لا تناظرهم بالكلام وهذه الآية غير منسوخة {يَوْمَ يَدْعُو ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ} و «يوم» منصوب ب «يخرجون»، و «خشعاً» حال من فاعل «يخرجون»، وكذا جملة «كأنهم» إلخ وقرأ ابن كثير «نكْر» بسكون الكاف. والباقون بالضم. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «خاشعاً» بفتح الخاء، وبألف بعدها والباقون بضم الخاء وفتح الشين مشددة. وقرىء «خاشعة» بالتأنيث على الأصل وقرىء «خشع أبصارهم» على الابتداء، والخبر والجملة حال، والمعنى: يخرج الناس من القبور حال كونهم مثل جراد منتشر في كثرتهم واجتماع بعضهم على بعض يوم يدعو إسرافيل أو جبريل إلى شيء فظيع تنكره النفوس، وهو هول القيامة أذلة أبصارهم من شدة الهول، {مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ} أي مسرعين إليه مادي أعناقهم إليه {يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ} في ذلك اليوم: {هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} أي صعب شديد، ثم شرع في ذكر بعض الأنباء الموجبة للازدجار فقال: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ} أي قبل أهل مكة، {قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا} نوحاً {وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَ ٱزْدُجِرَ} عطف على «قالوا»، أي قالوا لنوح: هو مجنون وزجروه عن مقالته بأنواع الأذية، {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ} أي بأني غلبني قومي بالقوة فانتقم لي منهم، والعامة على فتح همزة «أني». وقرأ الأعمش وابن أبي إسحاق بالكسر، أي فقال نوح: يا إلهي إن نفسي غلبتني بحكم البشرية، وقد أمرتني بالدعاء عليهم، فأهلكهم {فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ}، أي بمطر منصب من السماء على الأرض أربعين يوماً.

وقرأ ابن عامر بتشديد التاء لكثرة الأبواب،

{وَفَجَّرْنَا ٱلأَرْضَ عُيُوناً} أي جعلنا الأرض كلها، كأنها عيون منفجرة، {فَالْتَقَى ٱلمَآءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} أي فارماء الأرض بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء على حال قد قدَّرها الله تعالى كما شاء. وقرىء «الماآن» بالتثنية وتحقيق الهمزة «والماوان» بقلب الهمزة واواً، أي ماء السماء وماء الأرض. {وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ} أي وحملنا نوحاً على سفينة ذات أخشاب عريضة ومسامير، {تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا} أي تسير السفينة محفوظة بحفظنا، {جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ} أي حملناه جزاء لنوح على صبره على كفرانهم، لأنه كان نعمة كفروها فإن كل نبي نعمة على أمته. وقرىء «جزاء» بكسر الجيم، أي مجازاة، وقرىء «كفر» بالبناء على الفاعل، أي أغرقنا الكفار جزاء لهم، {وَلَقَدْ تَّرَكْنَٰهَا ءايَةً} أي ولقد جعلنا السفينة آية يعتبر بها من يقف على خبرها، {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} أي فهل من معتبر يعتبر بما صنع الله بقوم نوح موجود فيترك المعصية ويختار الطاعة، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى} الذي عذبتهم به، {وَنُذُرِ} أي وكيف كان عاقبة إنذاري؟ {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ} أي وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك، بأن نزلناه على لغتهم للاتعاظ، {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} أي فهل من طالب علم فيعان عليه؟ {كَذَّبَتْ عَادٌ} هوداً فاسمعوا، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ} أي

إنذاراتي لهم، {إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً} أي باردة وهو ريح الدبور {فِى يَوْمِ نَحْسٍ}، أي إلى نفاذ المراد، وهو من يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب شمس الأربعاء آخره، ومستمر، وصف ليوم مضاف إلى «نحس» بسكون الحاء.

وقرىء بتنوين «يوم» وكسر حاء «نحس»، ومن جعل نحساً اسم معنى أو مصدراً كان مستمر وصفاً لنحس أي مستمر النحوسة. {تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ} أي تقلع قوم هود من أماكنهم فيلقون أمواتاً وهم جثث عظام طوال كأنهم نخل قطعت رؤوسه منقلع عن مغارسه، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ} أي انظر كيف كان عذابي عليهم وكيف كان حال إنذاراتي، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ} أي هيأناه للتذكر {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} أي فهل من متعظ يتعظ بم ا صنع بقوم هود فيترك المعصية؟ {كَذَّبَتْ ثَمُودُ} قوم صالح {بِٱلنُّذُرِ} أي بالإنذارات، {فَقَالُوٓاْ أَبَشَراً مِّنَّا وَٰحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ} أي فقالوا: أنتبع آدمياً مثلنا واحداً من آحادنا لا من أشرافنا في دينه وأمره إنا وقتئذٍ لفي خطأ بيِّن وتعب، {أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا} أي أألقي الوحي على صالح وهل خصَّ بالنبوة منفرداً من بيننا وفينا من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً، {بَلْ هُوَ كَذَّابٌ} في قوله، {أَشِرٌ} أي متكبر مرح، {سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلأَشِرُ}.

وقرأ ابن عامر وحمزة بتاء الخطاب وهو حكاية عن قول صالح عليه السلام لقومه، أي ستعلمون وقت نزول العذاب بكم في الدنيا عن قريب من شديد الكذب المتكبر. والباقون بياء الغيبة وهو حكاية لقوله تعالى لصالح عليه السلام وعداً له ووعيداً لقومه أي سيعلمون عن قريب وهو وقت نزول العذاب بهم في الدنيا من الذي حمله كذبه وبطره على الترفع أصالح هو أم من كذبه؟ وقرىء «الأشر» أي الأبلغ في الشرار فقال الله لصالح: {إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ} أي إنا مخرجو الناقة من الجبل المنبسط على الأرض حسب ما سألوا {فِتْنَةً لَّهُمْ} مفعول لأجله، أي امتحاناً لهم ليتميز حال من يثاب ممن يعذب فإخراج الناقة من الصخرة كان معجزة لصالح، لأنها تصديق له وبعده يتميز المصدق عن المكذب وإرسالها إليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة، {فَٱرْتَقِبْهُمْ} أي انتظرهم بالعذاب وتبصر ما يصنعون، {وَٱصْطَبِرْ} على أذيتهم، أي فإن كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب، {وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ} أي أخبرهم بأن ماء بئرهم مقسوم بين قوم صالح والناقة فيوم لهم ويوم لها {كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ} أي كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في نوبته، فبقوا على ذلك مدة، ثم سئموا من ضيق الماء والمرعى عليهم، وعلى مواشيهم فأجمعوا على قتلها {فَنَادَوْاْ صَٰحِبَهُمْ} قدار بن سالف، ويلقب بالأجهر بعد ما رماها مصدع بن دهر بسهم، {فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ} أي تناول قدار السيف فقتل الناقة به موافقة لهم، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ} أي إنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله،

{إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً} صيحة جبريل بالعذاب بعد ثلاثة أيام من قتلهم الناقة، لأنه كان في يوم الثلاثاء، ونزول العذاب بالصيحة بهم كان يوم السبت، {فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ} بكسر الظاء، أي فصاروا كالشيء

اليابس من الحطب والشوك لمن يعمل الحظيرة في إهلاكهم. وقرىء بفتح الظاء أي فصاروا كالشيء الذي داسته الغنم في الحظيرة، وهي زريبة الغنم تتخذ من دقاق الشجر وضعيف النبات تقيها عن الحر أو البرد، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ} أي هوَّنا القرآن للعظة والحفظ والقراءة.

قال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً، أي بغير نظر إلاّ القرآن. وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل ولم يكونوا يقرأون التوراة إلاّ نظراً غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} أي فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ} أي بالأمور المخوفة لهم على لسانه {إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَٰصِباً}، أي عذاباً بحجارة من سجيل، عليها علامة كل واحد، فالملائكة حركوا الريح، فالريح رمت الحجارة عليهم {إِلاَّ آلَ لُوطٍ} أي إلاّ لوطاً وابنتيه زاعورا ورينا. {نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ} أي في آخر الليل. وقيل عند السدس الأخير من الليل {نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا} مفعول له، أي كان ذلك الإنجاء فضلاً منا كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً منا {كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ}، أي كما أنعمنا على من آمن بالله تعالى وأطاعه بالإنجاء ننعم عليهم يوم الحساب. وقيل: أي مثل ذلك الإنجاء ننجي من آمن بالله من عذاب الدنيا، ولا نهلكه بالهلاك العام، وعلى هذا فهو وعد لأمة محمد المؤمنين {وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا} أي ولقد خوفهم لوط عذابنا الأكبر يوم القيامة لئلا يكون مقصراً في التبليغ، {فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ} أي شكوا في الإنذارات وكذبوا لوطاً، {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ} أي طلبوا من لوط المرة بعد المرة أن يخلي بينهم وبين أضيافه من الملائكة التي في صورة شبان مرد للفاحشة، {فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ} أي أذهبنا صورة أعينهم بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء.

روي أنهم لما دخلوا داره عليه السلام عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام. {فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ} أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي الذي هو طمس العين وثمرة إنذاري.

وقال القرطبي: والمراد من هذا الأمر خبر، أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط عليه السلام، {وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ} أي ولقد أتاهم وقت الصبح أول جزء منه عذاب دائم، فإنهم لما أهلكوا نقلوا إلى الجحيم، فكان ما أتاهم عذاب لا يندفع بموتهم، أي فقلع جبريل بلادهم فرفعها، ثم قلبها وأمطر الله عليها حجارة من النار، وخسفها وغمرها بالماء المنتن الذي لا يعيش به حيوان.

وقرىء «بكرة» غير منون على أن المراد بها أول نهار مخصوص، {فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ} أي فقلنا لهم: ذوقوا عذابي وفائدة تخويفي وهي فنون هذا العذاب، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ} أي هوَّنا القرآن للحفظ والكتابة {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}؟ أي فهل متعظ يتعظ بما صنع بقوم لوط فيترك المعصية؟ {وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ} أي ولقد جاء فرعون وهامان وقارون الإنذار على لسان موسى وهارون، {كَذَّبُواْ بِأايَٰتِنَا كُلِّهَا} السمعية والعقلية، {فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} أي أخذ غالب غير عاجز {أَكُفَّرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ} أي الذين يصرون على الكفر منكم أهل مكة خير في

القوة فلا تهلكون أم الذين أصروا عليه من أولئكم المذكورين، قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون، وآله وهم من يؤول إليهم خيره وشره؟ {أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ} أي هل حصل لكم براءة من غوائل الكفر والمعاصي في الكتب السماوية تأمنون العذاب بسببها فلذلك تصرون على ما أنتم عليه؟

{أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ}؟ أي بل أيقولون: نحن كثير منتقمون على من خالفنا، قويون على من عادانا {سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ} أي يهزم جمعهم بأيسر أمر بوعد لا خلف فيه، {وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ}.

قال سعيد بن المسيب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما نزلت: سيهزم الجمع ويولون الدبر، كنت لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». فعرفت تأويلها اه. وقرىء «سيهزم الجمع» بالبناء للفاعل، أي سيهزم الله تعالى الجمع {بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ} أي ليس ما وقع لهم في بدر تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا من مقدماته {وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ}، والساعة أشد من أنواع عذاب الدنيا وآلم وأدوم، {إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ} من الأولين والآخرين {فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ} في ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ} أي يوم يجرون على وجوههم إلى النار يقال لهم: قاسوا حر جهنم وألمها، {إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ}، أي إنا خلقنا كل شيء ملتبساً بقدر معين، والمعنى: أن الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها الله تعالى، {وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ} أي وما أمرنا في كل شيء أردنا إيجاده إلاّ كلمة واحدة وهي: كن كطرف البصر في السرعة. {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَٰعَكُمْ} أي أشباهكم في الكفر من الأمم الماضية فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} أي متعظ يتعظ بما صنع بهم فيترك المعصية؟ {وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ} أي وكل شيء فعله الأشياع في الشرك بالله من المعاصي والجفاء بالأنبياء مكتوب عليهم في ديوان الحفظة، {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ} من الأعمال {مُّسْتَطَرٌ} أي مكتوب بتفاصيله في اللوح المحفوظ {إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ} من الكفر والمعاصي {فِى جَنَّٰتٍ} أي رياض واسعة عظيمة الشأن، {وَنَهَرٍ} أي عند أنهار.

وقرىء «نهر» بضم النون والهاء {فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ} أي في مكان مرضي، أو في مجلس لا كذب فيه. وقرىء «مقاعد». {عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} أي مقربين عند من له ملك عظيم قادر لا يعجزه شيء ولا شيء إلاّ وهو تحت ملكوته، والقربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد قدرة كان المتقرب منه أشد التذاذاً. والمراد من القرب: قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان.

سورة الرحمٰن

وتسمى عروس القرآن مكية، سبع وسبعون آية، وثلاثمائة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وستمائة وستة وثلاثون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ} أي علم الإنسان القرآن، فإن الله بعث جبريل بالقرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وبعث محمداً إلى أمته. {خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَ} أي أنشأه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة. {عَلَّمَهُ ٱلبَيَانَ} أي النطق. فيمتاز الإنسان به عن غيره من سائر الحيوانات وألهمه الله أسماء كل شيء وكل دابة تكون على وجه الأرض. {ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} أي الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر في بروجها بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول، وتعلم السنون والأوقات. {وَٱلنَّجْمُ} وهو كل نبت لا يقوم على الساق. {وَٱلشَّجَرُ} وهو ما يقوم على الساق {يَسْجُدَانِ} أي يخضعان الله تعالى، ويخرجان من الأرض، ويثبتان عليها بإذن الله تعالى فشبه الثبات في المكان بالسجود، لأن الساجد يثبت. {وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا} فوق كل شيء {وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ}، أي وضع آلة الوزن في الأرض وبين العدل {أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ}، أي لئلا تتجاوزوا الإنصاف في الوزن وفي إعطاء المستحقين حقوقهم.

وقرىء «لا تطغوا» بدون «أن» على إرادة القول، {وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ} أي بالعدل {وَلاَ تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ} أي ولا تنقصوا الموزون، فالطغيان في الوزن أخذ الزائد والإخسار إعطاء الناقص والقسط المتوسط بين الطرفين، {وَٱلأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ} أي بسطها على الماء لمنافع الإنس والجن {فِيهَا} أي الأرض، {فَٰكِهَةٌ} أي أنواع كثيرة مما تطيب به النفس {وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلأَكْمَامِ}، وهي أوعية الثمر، وهي جمع «كم» بكسر الكاف، أو هي كل ما يغطى من ليف وسعف وكفرى، فإنه مما ينتفع به كالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه، وهي جمع «كم» بضم الكاف، {وَ ٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ}.

قرأ ابن عامر بنصب الثلاثة بخلق مضمراً، أي وخلق الحبوب كالحنطة والأرز ذا الأوراق وخلق الريحان المعروف الذي بزره ينفع في الأدوية، أو المشمومات. وقرأ حمزة والكسائي برفع «الحب» و «ذو» عطفاً على فاكهة وجر «الريحان» عطفاً على العصف، أي وفيها الحب ذو الساق وذو الأوراق. وقرأ الباقون برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة، أي وفيها الحب ذو الأوراق الخارجة من جوانب الساق، كأوراق السنبلة من أعلاها إلى أسفلها وفيها مشمومات، أو ريحان معروف، ويجوز أن يراد عند رفع الريحان، ونصبه حذف المضاف وإقامة المضاف، إليه مقامه، والمعنى: وذو السنبلة والثمر أو وخلق ذا الرزق وهو الثمر. {فَبِأَىِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي فبأي فرد من أفراد نعم ربكما أيها الجن والإنس تنكران أنها ليست من الله أبتلك النعم المذكورة هنا أم بغيرها، ويسن لسامع القارىء لهذه السورة أن يجيبه كلما قرأ هذه الآية وهي مكررة في أحد وثلاثين موضعاً بأن يقول، ولا بشيء من نعمك، ربنا نكذب فلك الحمد، لأن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أقر الجن على ذلك الجواب. {خَلَقَ ٱلإِنسَٰنَ} أي آدم {مِن صَلْصَٰلٍ} أي من طين منتن يابس له صوت، {كَٱلْفَخَّارِ} أي كالخزف المشوي بالنار المجوف كالإناء في أن كل منهما يسمع له صوت إذا نقر ليعلم هل فيه عيب أو لا؟ {وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ} أي الجن نفسه {مِن مَّارِجٍ} أي من لهب صافٍ {مِّن نَّارٍ} لا دخان لها وهو بيان ل «مارج»، {فَبِأَيِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أيها الجن والإنس أبما أفاض عليكما في حالات شتى لخلقتكما حتى صيَّركما خلاصة الكائنات أم بغيره؟ {رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ} أي الذي فعل ما ذكر رب مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما. وقرأ ابن أبي عبلة «رب» بالجر بدلاً، أو بياناً ل «ربكما».

{فَبِأَيِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي أبما في ذلك من الفوائد العظيمة التي لا تحصى، كاعتدال الهواء، واختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه أم بغير ذلك، {مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ} أي أرسل الرحمٰن البحر الملح والبحر العذب، {يَلْتَقِيَانِ} أي يتماسان ولا يمتزجان، {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ} أي حاجز من قدرة الله تعالى، {لاَّ يَبْغِيَانِ} أي لا يتجاوز كل واحد منهما ما حده الله تعالى ولا يغير واحد منهما طعم صاحبه. {فَبِأَيِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تِكَذِّبَانِ} فهلا اعتبرتم بأنواع الموجودات {يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْلُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ}، فاللؤلؤ الدر، والمرجان الخرز الأحمر.

وقيل: اللؤلؤ كبار الدر، والمرجان شغاره. قيل: إن اللؤلؤ يتولد في ملتقى الملح والعذب، ثم يدخل الصدف في المالح عند انعقاد الدر فيه فيثقل هناك فلا يمكنه الدخول في العذب. وقيل: هما يخرجان من الملح في الموضع الذي يقع فيه العذب: {فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبكثرة النعم من خلق المنافع في البحر، وإخراج الحلي العجيبة أم بغيرها، {وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَئَاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلأَعْلَٰمِ}. وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الشين، أي وله تعالى السفن الرافعات الشراع في البحر كالجبال. والباقون بالفتح أي المرفوعات القلع. وقرأ ابن أبي عبلة بتشديد الشين. وقرأ يعقوب «الجواري» بإثبات الياء في الوقف. وقرأ عبد الله والحسن «الجوار» برفع الراء ولا تثبت الياء في الرسم، {فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي أبتلك النعم من خلق مواد السفن وأسباب لا يقدر على خلقها غيره تعالى أم بغيرها. {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا} أي على الأرض من الحيوانات والمركبات، {فَانٍ} أي هالك لا محالة {وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ} أيها السامع، أي ذاته عز وجل {ذُو ٱلْجَلْٰلِ} أي العظمة التي لا يسعها عقل {وَٱلإِكْرَامِ}، أي الفضل التام فالجلال مرتب على فناء غير الله تعالى والإكرام مرتب على بقائه تعالى. وقال صلى الله عليه وسلم: «الظوا بيا ذا الجلال والإكرام». أي الزموا في الدعاء ذلك.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال: «قد استجيب لك»، والعامة على «ذو» بالواو صفة لوجه. وقرأ أبي وعبدالله «ذي» بالياء صفة ل «رب» {فَبِأَيِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي أبتلك النعم من دفع البلاء، وإبقاء ما هو مخلوق إلى وقت فنائه أم بغيرها {يَسْأَلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} فيسأله كل أحد ما يحتاج إليه في دينه فكل أحد عاجز عن تحصيل ما يحتاج إليه ويسأله كل أحد عن

عاقبة أمره، وعما فيه صلاحه وفساده فكل أحد جاهل بما عند الله من المعلومات، فالوجه الأول إشارة إلى كمال القدرة. والوجه الثاني إشارة إلى كمال العلم {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ} أي كل وقت من الأوقات هو تعالى في شأن يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويرفع من يشاء، ويضع من يشاء كما هو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم. ويقال: يحتمل أن يكون هو عائداً إلى يوم و «كل يوم» ظرف ليسأله، أي يقع سؤالهم كل يوم هو في شأن يتعلق بهم فيطلبون ما يحتاجون إليه أو يستخرجون أمره بما يفعلون فيه، {فَبِأَىِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} مع مشاهدتكم لإحسانه تعالى، أبتلك النعم أم بغيرها، {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلاَنِ}؟ أي سنقصد لحسابكم وجزائكم أيها الجن والإنس، أي سندبر لكم أمر الآخرة من الأخذ في الجزاء وإيصال الثواب والعقاب إليكم بعد تدبيرنا لأمر الدنيا بالأمر والنهي، والإماتة والإحياء، والمنع والإعطاء.

وقرأ حمزة والكسائي «سيفرغ» بالياء على الغيبة. وقرىء بالبناء للمفعول. وقرىء «سنفرغ إليكم» وترسم «أيه» بغير ألف. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالألف في الوقف. والباقون بتسكين الهاء. وقرأ ابن عامر برفع الهاء في الوصل والباقون بالفتح، {فَبِأَىِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم من التنبيه على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب أم بغيرها.

{يٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ فَٱنفُذُواْ} أي يا جماعة الجن والإنس إن قدرتم أن تخرجوا من أطراف السمٰوات والأرض، وأن تهربوا من قضائي وملكي، فاخرجوا منها، وخلّصوا أنفسكم من عقابي {لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ} أي ما تنفذون إلاّ ومعكم سلطان الله، أي فلا مهرب لكم ولا مخرج عن ملك الله تعالى، وأينما توليتم فثمَّ ملك الله وأينما أتاكم حكم الله {فَبِأَىِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم من دفع البلاء وتأخير العذاب عن العصاة أم بغيرها، {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ} أي لهب خالص لا دخان فيه {مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ} أي دخان لا لهب معه يسوقانكما إلى المحشر.

قرأ ابن كثير بكسر شين «شواظ». وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد، وأبو عمرو بجر «نحاس» عطفاً على «نار»، ولا بد في هذه القراءة من كسر الشين أو إمالة «نار»، وعلى هذا فالشواظ مركب من نار ومن دخان.

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم: إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر. وقرىء «نحاس» بكسر النون. وقرىء «نرسل» بنون العظمة، ونصب «شواظاً» و «نحاساً». وقرىء نحس بضمتين جمع نحاس {فَلاَ تَنتَصِرَانِ} أي فلا ينتصر أحدكما بالآخر ولا أنتما بغيركما {فَبِأَىِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم من بيان عاقبة الكفر والمعاصي أم بغيرها، {فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ}، أي فإذا انصدعت السماء وخربت يوم القيامة فصارت حمراء كالأديم المغربي، وهو ما فيه حمرة مع السواد يكون الأمر عسيراً في غاية العسر، أو يلقى المرء فعله ويحاسب حسابه، {فَبِأَىِّ ءَالاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} مع عظم شأنها،

{فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْ ألُ عَـن ذَنبِـهِ إِنـسٌ وَلاَ جَـآنٌّ} أي فالمـذنب يـوم إذ تنشـق السماء وذلك أول ما يخرجون مـن القبـور، ويحشـرون إلـى الموقـف ذوداً ذوداً على اختلاف مراتبهم لا يسأل عن ذنبه إنسي ولا جني، لأنهـم يعرفـون بسيماهم {فَبِأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم من الأخبار بما يزجر عـن الشر أم بغيرها {يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِـيمَٰهُمْ} أي بسـواد وجـوههم وزرقـة أعينهم، {فَيُؤْخَـذُ بِٱلنَّوَاصِـى وَٱلاَّقْـدَامِ} أي يجمـع نواصـيهم وأقـدامهم فـي سلسلة من وراء ظهورهم فيطرحون في النار، {فَبِأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي تجحدون والوقف هنا تام، {هَٰـذِهِ جَهَنَّـمُ ٱلَّتِـى يُكَـذِّبُ بِهَـا ٱلْمُجْرِمُـونَ}. وهذه إشارة إلى قربها أي جهنم التي يكذب بها المشركون هذه قريبـة غيـر بعيدة عنهم، {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ} أي يترددون بيـن النـار ومـاء حار قـد انتهـى حـره، فيحرقـون بهـا، فيسـتغيثون منهـا، فيسـعى بهـم إلـى الحميـم، ويظهـر لهـم شـيء مـانع هـو صـديدهم المغلـي، فيظنـونه مـاء، فيسقون منه ويصب فوق رؤوسهم، فإذا استغاثوا منه يسعى بهم إلى النـار وهكـذا، {فَبِـأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ} ممـا أشـرنا إليـه مـن أول السـورة، فتستحقان العذاب وتحرمان الثواب. {وَلِمَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّـهِ جَنَّتَـانِ} أي ولمن خاف المقام الذي يقوم هـو فيـه بيـن يـدي ربـه، وهـو مقـام عبـادته، والمقام الذي اطلع الله على عباده، فانتهى عن المعصية جنتان، جنة لفعـل الطاعات، وجنة لترك المعاصي، لأن التكليف لهـذين النـوعين. وقيـل: هـي جنة جزاء وجنة أخرى زيادة على الجزاء {فَبِأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلـك النعـم أم بغيرهـا {ذَوَاتَـآ أَفْنَـانٍ} أي صـاحبتا أغصـان، فـإن الجنـات ذوات أشجار، والأشجار ذوات أغصان، والأغصان ذوات أزهار، وأثمار وهـي لتنـزه الناظر وتنكير أفنان للتعجب، أي على الأفنان أوراق عجيبة، وثمار طيبة من غير سوق غلاظ، فالجنة ذات فنن غير كائن على أصل وعرق بل هي واقفـة في الجو وأهلها تحتها، {فَبِأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعـم مـن وصـف الجنة أم بغيرها، {فِيهِمَـا عَيْنَـانِ تَجْرِيَـانِ} أي فـي كـل واحـدة منهمـا عيـن جاريـة كيـف يشـاء صـاحبها فـي الأعـالي والأسـافل، {فَبِـأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم التي ذكرها أم بغيرها؟ {فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَـانِ} أي في كل واحدة من الجنتين نوعان من الفواكه معروف وغريب، أو رطب ويابس وكلاهما حلو يستلذ به {فَبِأَىِّ ءَالاَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي بتلك النعم أم بغيرها،

{مُتَّكِئِينَ} حال من فاعل «خاف» الذي هو عامل للحال، أو كان عامله وصاحبه ما تدل عليه «فاكهة»، أي يتفكه المتفكـون حـال كـونهم جالسـين جلوس المتمكن المتربع، {عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا} أي التي تلـي الأرض {مِـنْ إِسْـتَبْرَقٍ} أي ديبـاج ثخيـن، وكـذا ظهائرهـا بخلاف أهـل الـدنيا فلا يجعلـون البطائن كالظواهر، لأن غرضهم إظهار الزينة، والبطـائن لا تظهـر. أمـا فـي الآخـرة فـالأمر مبنـي علـى الإكـرام والتنعيـم فتكـون البطـائن كـالظواهر. {وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} أي ثمر الجنتين قريب يناله القاعد والقائم في وقـت واحد ومكان واحد، فإن العجائب كلهـا مـن خـواص الجنـة، فكـان أشـجارها دائرة عليهم سائرة إليهم وهم ساكنون على خلاف ما كان في جنات الدنيا، فإن الإنسـان فيهـا متحـرك ومطلـوبه سـاكن، والـولي قـد تصـير الـدنيا لـه

أنموذجاً من الجنة، فإنه يكون ساكناً في بيته ويأتيه الرزق متحركاً إليه دائراً حواليه، {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبقدرته على ثني الأغصان وتقريب الثمار أم بغيرها {فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ} أي في الجنان نساء مانعات أعينهن من النظر إلى غير بعلهن، وللجنة اعتبارات ثلاثة، فلاتصال أشجارها وعدم الأراضي الغامرة كأنها جنة واحدة ولاشتمالها على النوعين ما في الدنيا، وما ليس فيها وما يعرف وما لا يعرف، وما يقدر على وصفه، وما لا يقدر، ولذات جسمانية، ولذات روحانية، كأنها جنتان ولسعتها، وكثرة أماكنها، وأشجارها وأنهارها، كأنها جنات كثيرة، فالضمير هنا عائد إلى الجنتين {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ}، أي لم يجامع الإنسيات أحد من الإنس ولا الجنيات أحد من الجن قبل أزواجهن والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا، وإنما هن مخلوقات في الجنة، فإن أكثر نساء أهل الدنيا مطموثات {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي بأي نوع من أنواع هذا الإحسان تنكران {كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَ ٱلْمَرْجَانُ} أي مشبهات بالياقوت في حمرة الوجنة وبالمرجان بمعنى صغار الدر في بياض البشرة وصفائها، فإن صغار الدر أنصع بياضاً من كباره.

قيل: إن الحوراء تلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء، {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أي بما جعله مثالاً لوصفهن أم بغيره، {هَلْ جَزَآءُ ٱلإِحْسَٰنِ إِلاَّ ٱلإِحْسَٰنُ}؟ أي ما جزاء الإحسان في العمل إلاّ الإحسان في الثواب فجزاء كل من أحسن إلى غيره أن يحسن هو إليه أيضاً. {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبشيء من هذه النعم الجليلة أم بغيرها {وَمِن دُونِهِمَ ا جَنَّتَانِ} أي ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، أبشيء مما تفضل به عليكم من الجنات أم بغيره. {مُدْهَآمَّتَانِ} أي سوداً، وإن من شدة الخضرة من الري، وهذه صفة لجنتان. {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبشيء من تلك النعم الجليلة أم بغيرها {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} أي فوارتان أي ماؤهما متحرك إلى جهة فوق {فَبِأَىِ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم أم بغيرها {فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} وأفردهما بالذكر مع دخولهما في الفاكهة بياناً لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، والرمان فاكهة ودواء، فيحنث بأكل أحدهما من حلف لا يأكل فاكهة، كما قاله الشافعي وأكثر العلماء خلافاً لأبي حنيفة، {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبتلك النعم أم بغيرها؟ {فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ} أي في الجنتين نساء في باطنهن خير وفي ظاهرهن حسن.

روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أخبرني عن قوله تعالى: {خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ} قال: «خيِّرات الأخلاق حسان الوجوه». {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبنعمة الحور أم بغيرها، {حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ} أي محبوسات على أزواجهن {فِى ٱلْخِيَامِ}، أي في خيام الدر المجوف، وهي فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب، {فَبِأَىِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبهذه النعم أم بغيرها؟ {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ} أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن أحد،

{فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبهذه النعم أم بغيرها؟ {مُتَّكِئِينَ} حال مما دل عليه «لم يطمثهن» إلخ فأزواجهم لم يطمثن حال كونهم متكئين {عَلَىٰ رَفْرَفٍ} أي رياض أو بسط، {خُضْرٍ} فالأخضر حصل فيه الألوان الثلاثة الأبيض والأسود والأحمر، فالأبيض: يفرق البصر والأسود: يجمع البصر كالأحمر، فلما اجتمع في الأخضر الأمور الثلاثة دفع بعضها أذى بعض ولما كان ميل النفس في الدنيا إلى الأخضر أكثر ذكره الله تعالى، {وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} فالثياب المعمولة عملاً جيداً يسمونها عبقريات مبالغة في حسنها، كأنها ليست من عمل الإنس، لأن العبقري منسوب إلى عبقر وهو موضع من مواضع الجن، {فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} أبشيء من هذه النعم أم بغيرها؟ {تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلإِكْرَامِ} أي تعالى اسمه الجليل وارتفع عما لا يليق بشأنه.

قرأ ابن عامر ذو الجلال بالواو. والباقون «ذي» بالياء صفة لرب. وهذا إشارة إلى أن أتم النعم عند الله تعالى وأكمل اللذات ذكر الله تعالى.

سورة الواقعة

مكية، سبع وتسعون آية، وثلاثمائة وثمان وتسعون كلمة، وألف وسبعمائة وثلاثة أحرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} أي إذا قامت القيامة يعترف بها كل أحد ويبطل عناد المعاندين ولا يتمكن أحد من إنكارها والعامل في «إذا» «ليس لوقعتها كاذبة» فاللام بمعنى في، أي ليس كاذبة توجد في وقت وقوعها، أو بمعنى عندي أي لا يكون عند وقوعها نفس تكذب في نفيها، وإنما سميت القيامة واقعة لشدة صوتها يسمع القريب والبعيد، {خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ} أي هي خافضة للكافرين في دركات النار والعذاب، ورافعة للمؤمنين في درجات الجنة والنعيم.

وقرىء «خافضة رافعة» بالنصب على الحال من «الواقعة»، {إِذَا رُجَّتِ ٱلأَرْضُ رَجّاً}، أي إذا زلزلت الأرض زلزالاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، و «إذا» متعلقة ب «خافضة» رافعة أو بدل من «إذا وقعت». {وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً} أي فتتت الجبال فتاً، {فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثّاً} أي فصارت الجبال غباراً منتشراً، {وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَٰثَةً} أي وصرتم في ذلك اليوم أيها الخلائق ثلاثة أصناف، اثنان في الجنة وواحد في النار، ثم بينهم الله تعالى بقوله: {فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ} أي فأهل الجنة الذين يعطون كتابهم بيمينهم، أيّ شيء هم في حالهم، فهم في غاية حسن الحال في الكرامة والسرور {وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْأَمَةِ} أي وأهل النار الذين يعطون كتابهم بشمالهم أيّ شيء هم في حالهم، فهم في غاية سوء الحال وهم في الهوان والعذاب، {وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ} أي والسابقون الذين لا حساب عليهم هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت محاسنهم، فهم يسبقون الخلق إلى الجنة من غير حساب، فالسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الجنة في العقبى، {أُوْلَٰئِكَ} أي السابقون {ٱلْمُقَرَّبُونَ} إلى الله تعالى {فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ} في أعلى

عليين، فلهم قرب عند الله كما يكون الجلساء الملوك فهم لا يكون بيدهم شغل ولا يرد عليهم أمر، فيلتذون بالقرب ويتنعمون بالراحة، بخلاف قرب الملائكة الذين هم للأشغال، فهو قرب الخواص عند الملك، فهم ليسوا في نعيم وإن كانوا في لذة عظيمة، ولا يزالون خائفين قائمين بباب الله يرد عليهم الأمر ولا يرتفع عنهم التكليف، {ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ} أي هم أي السابقون إلى الإيمان بالأنبياء عياناً، المجتمعون عليهم جماعة كثيرة من الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبينا عليهم السلام وقليل من هذه الأمة، أي إن الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوهم من الأمم الماضية أكثر ممن عاين النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به، وهذا لا ينافي كون أمة محمد ثلثي أهل الجنة {عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ} أي موصولة بالذهب والفضة، منسوجة بالدر والياقوت ويقال: أرضها من الذهب الممدود وقوائمها من الجواهر النفيسة {مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا} أي السرر، {مُتَقَٰبِلِينَ} فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض. وهذا وصف لهم بحسن العشرة والآداب، وتهذيب الأخلاق. ويقال: السابقون هم الذين أجسامهم أرواح نورانية وجميع جهاتهم وجه، {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ} أي يدور حولهم للخدمة {وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ} أي مبقون أبداً على شكل الولدان، لا يكبرون ولا يلتحون {بِأَكْوَابٍ}، أي بكيزان وهي أوان مستديرة الأفواه بلا عري ولا خراطيم، {وَأَبَارِيقَ} وهي: أوان لها عري وخراطيم {وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ} أي إناء خمر طاهرة تجري من عيون {لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا} أي لا يصيبهم صداع بسبب شربها، {وَلاَ يُنزِفُونَ}.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الزاي، أي لا ينفذ شرابهم. والباقون بفتحها أي «لا يكسرون»، أي لا ينزف عقولهم.

{وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ}، أي مما يختارونه ويأخذون أفضله، {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. وقرىء «ولحوم طير». وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة طيراً مثل أعناق البخت تصطف على يد ولي الله فيقول أحدهما: يا ولي، الله رعيت في مروج تحت العرش، وشربت من عيون التنسيم فكل مني، فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فيخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد، فإذا شبع تجمع عظام الطير فطار يرعى في الجنة حيث شاء». فقال عمر: يا نبي الله، إنها لناعمة. قال: «آكلها أنعم منها». {وَحُورٌ عِينٌ} أي نساء شديدات بياض أجسادهن وشديدات سواد العيون مع سعتها.

وقرأ حمزة والكسائي بالجر عطف على «جنات النعيم» كأنه قيل: هم في جنات وفاكهة، ولحم طير، ومصاحبة حور. والباقون بالرفع عطفاً على «ولدان» فلأهل الجنة حور مقصورات معظمات، ولهن جوار وخوادم وحور تطوف مع الولدان السقاة. وقرىء «وحوراً عيناً» بالنصب، أي ويعطون حوراً عيناً، {كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ} أي المصون الذي لم تقع عليه الشمس والهواء. وهذا إشارة إلى غاية صفائهن {جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم {لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا}، أي الجنة {لَغْواً} أي شيئاً لا ينفع، {وَلاَ تَأْثِيماً} أي شيئاً منسوباً إلى الإثم كالشتم، {إِلاَّ قِيلاً سَلَٰماً سَلَٰماً} أي لكن يقولون ويسمعون قولاً سلاماً سلاماً، أي يسلم

بعضهم على بعض وتسلم الملائكة عليهم، ويرسل الرب السلام إليهم. وقرىء «سلام سلام» على الحكاية. {وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ} أي يتنعمون في شجر نبق {مَّخْضُودٍ} أي غير ذي شوك، وموقر من الحمل حتى لا يبين ساقه، والله تعالى جعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها تنبت ثمراً على اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر كما في الحديث {وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ} أي وفي موز متراكب أوراقه وثمره لا يرى له ساق من كثرة ثمره الذي أحلى من العسل، وليس ثمر الجنة في غلاف كثمر الدنيا مثل الباقلا والجوز ونحوهما، بل كله مأكول ومشروب ومشموم منظور إليه.

واعلم أن الأشجار يجمعها نوعان أوراق صغار، وأوراق كبار، فالسدر في غاية الصغر وشجر الموز في غاية الكبر، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها، كما ذكر الله النخل والرمان عند ذكر الثمار، لأن بينهما غاية الخلاف فوقعت الإشارة إليهما جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى ثمارها، وكذلك النخيل والأعناب فإن النخل من أعظم الأشجار المثمرة، والكرم من أصغر الأشجار المثمرة وبينهما أشجار فوقعت الإشارة إليهما جامعة لسائر الأشجار، فإن البليغ يذكر طرفي أمرين يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما، كما يقال: فلان ملك الشرق والغرب ويفهم منه أنه ملك ما بينهما، وكما يقال فلان أرضى الصغير والكبير، ويفهم منه أنه أرضى كل أحد. {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ} أي منبسط لا تزيله الشمس أبداً، كظل ما بين الفجر وطلوع الشمس، {وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ} أي مصبوب من ساق العرش سائل يجري على الأرض في غير أخدود، ومثل الله حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن، وحال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي إعلاماً بالتفاوت بين الحالين {وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ} بحسب الأنواع والأجناس {لاَّ مَقْطُوعَةٍ} في وقت من الأوقات، {وَلاَ مَمْنُوعَةٍ} عن متناوليها بوجه من الوجوه. وقرىء و «فاكهة» بالرفع أي وهناك فاكهة إلخ. {وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ} على الأسرَّة كما قاله علي، أو نساء مرفوعات على الأرائك ومرفوعات بالفضل والجمال، ويدل على هذا التأويل قوله تعالى: {إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَٰراً}.

روى النحاس أن أم سلمة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى {إِنَّا أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَاء} فقال: هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز شمطاً، عمشاً، رمصاً، جعلهن الله تعالى بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء. وعن المسيب بن شريك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى: {إِنَّا أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَاء}: «هن عجائز الدنيا أنشاءهن الله تعالى خلقاً جديداً كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً». فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك قالت: واوجعاه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس هناك وجع». {عُرُباً} أي حسناء محسنة لكلامها متحببات إلى أزواجهن {أَتْرَاباً} أي مستويات في السن على مقدار ثلاث وثلاثين سنة {لأَّصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ} أي على سنهم.

وفي هذا الإشارة إلى الاتفاق، لأن أحد الزوجين إذا كان أكبر من الآخر فالشباب يعيره، والجار والمجرور متعلق ب «أتراباً» كقولك: هذا ترب لهذا

أي مساوٍ له في السن {ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ} أي هم أي أصحاب اليمين كثيرون من أوائل الأمم قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن أواخر الأمم، وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم {وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ}، أي في ريح متعفن يتحرك من جانب إلى جانب، فإذا شم الإنسان منه يفسد قلبه العفوية ويقتل الإنسان {وَحَمِيمٍ} أي ماء حار إشارة بالأدنى إلى الأعلى، فالهواء والماء أنفع الأشياء في الدنيا، فهواؤهم الذي يهب عليهم سموم وماؤهم الذي يستغيثون به حميم فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أحر، وكيف حالهم مع أحر الأشياء؟ {وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ} أي من دخان جهنم أسود، {لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} أي لا بارد يطلب الظل لبرده، ولا ذي كرامة قد أعد للجلوس فيه وحفظ عن القاذورات، {إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ} أي قبل سوء العذاب في الدنيا {مُتۡرَفِينَ}، أي منعمين بأنواع النعم ولم يشكروها {وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ} أي كانوا في الدنيا يديمون على الذنب العظيم الذي هو الشرك، {وَكَانُواْ يَقُولُونَ} إذا كانوا في الدنيا {أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا} أي صرنا {تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَأَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ}. وهذه الآيات الثلاثة إشارة إلى الأصول الثلاثة فقوله تعالى: {إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ} يدل على ذمهم بإنكار الرسل وعلى تكبرهم بغناهم، وهم كانوا يقولون: أبشراً منا واحداً نتبعه. وقوله تعالى: {يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ} إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد. وقوله تعالى: {وَكَانُواْ يَقُولُونَ أءذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَاباً} إلخ إشارة إلى إنكار الحشر.

وقرأ قالون وابن عامر بسكون الواو. والباقون بفتحها أي أئنا أو آباؤنا مبعثون أي أتبعث آباؤنا الأولون الذي قد فنيت عظامهم. {قُلۡ} يا أشرف الخلق لمنكري البعث: {إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَلَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ} أي إنهم يساقون بعد البعث إلى عرصة الحساب، ويجمعون في وقت يوم معين عند الله تعالى وهو يوم القيامة، {ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ} عن سبيل الله وهو التوحيد، {ٱلۡمُكَذِّبُونَ} أي المنكرون الحشر {لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ} أي لآكلون شجراً هو الزقوم، {فَمَالِأُونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ} أي كل واحد منكم يملأ بطنه من تلك الشجر، {فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ} أي عقب ذلك الأكل بلا ريث {مِنَ ٱلۡحَمِيمِ} أي الماء الحار، {فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ} أي لا يكون شربكم منه شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الإبل العطاش. {هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ} أي ليس المذكور كل العذاب، بل هذا أول ما يلقونه من العذاب وهو جزء منه، وإذا كان هذا ما يعدّ لهم أول قدومهم فما ظنك بما لهم بعد استقرارهم في النار، {نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ} بالبعث {أَفَرَءَيۡتُمۡ مَّا تُمۡنُونَ أَءَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُ أَم نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ}؟ أي هل تشكون في أن الله خلقكم أولاً أم لا؟ فإن لم تشكوا في ذلك فهلا تصدقون أيضاً بخلقكم ثانياً، فإن من خلقكم أولاً من لا شيء لا يعجز أن يخلقكم ثانياً من أجزاء معلومة عنده، فأخبروني أيّ شيء هو تصبون في أرحام النساء من المني إن كنتم تشكون وتقولون: الخلق لا يكون إلاّ من مني وبعد الموت لا مني، أفهذا المني أنتم تخلقونه، أم الله فإن كنتم تعترفون بقدرة الله وإرادته وعلمه، فذلك يلزمكم القول بجواز البعث وصحته،

{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ} أي وقتنا موت كل أحد بوقت معين. وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال أي سوّينا بينكم بالموت فتموتون كلكم، {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَعَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ} أي لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم، ونأتي مكانكم أشباهكم من الخلق، أي وما نحن عاجزون عن خلق أمثالكم وإعادتكم بعد تفرق أوصالكم، {وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي إنا قادرون على أن نخلقكم في صور لا تعلمونها في جنسكم، ويقال: أن نجعل أرواحكم يوم القيامة فيما لا تصدقون وهي النار.

وقال بعضهم: أنجعل أرواحكم في حواصل طير تكون ببرهوت كأنها الزرازير كما أخرجه ابن أبي حاتم. {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُولَىٰ} أي الخلق الأول في بطون الأمهات وهو من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة، {فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ} أي فهلا تتعظون بأن من قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الأخرى حتماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الشين في النشأة، وبألف بعدها فهمزة.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتخفيف الذال في «تذكرون». والباقون بالتشديد. وقرىء «تذكرون» من الثلاثي. وفي الخبر: «عجباً كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى وعجباً للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور». {أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ} أي أخبروني يا أهل مكة ما تبذرون من الحبوب {أَءَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ}، أي أأنتم تنبتونهٰ بل نحن المنبتون لا أنتم، {لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَٰماً} أي لجعلنا الزرع متكسراً يابساً بعد خضرته، وقبل ظهور الحب، أي إن قلتم: نحن نلقي البذر في الأرض وهو بنفسه يصير زرعاً لا بفعلنا ولا بفعل غيرنا، قال تعالى: ولو سلم لكم هذا الباطل فما تقولون في سلامة الزرع عن الآفات فيفسد قبل اشتداد الحب فهل تدفعون الآفات عنه، أو هذا الزرع بنفسه يدفعها عن نفسه كما تقولون إنه بنفسه ينبت؟ {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} أي فصرتم تعجبون من يبسه بعد خضرته. وقرىء «فظلتم» بكسر الظاء و «فظلتم» على الأصل بكسر اللام. وقرىء «تفكهون» أي تتندمون على ما أنفقتم عليه قائلين: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} أي إنا لمعذبون بالجوع بهلاك الزرع، أو إنا لمكرهون بالغرامة. وقرأ شعبة أئنا على الاستفهام {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} أي ممنوعون منفعة زروعنا، {أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ} عذباً فراتاً، {أَءَنتُمْ} يا أهل مكة {أَنزَلْتُمُوهُ} عليكم {مِنَ ٱلْمُزْنِ} أي السحاب الثقيل بالماء، {أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ} أي بل نحن المنزلون عليكم لا أنتم {لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ} أي ذلك الماء {أُجَاجاً}، أي حاراً أو مراً من شدة الملوحة، {فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ} أي فهلا تشكرون على هذه النعمة التامة، فإن النعمة لا تتم إلا عند الأكل والشرب، وذلك لأن الإنسان إذا كان في البراري التي لا يوجد فيها الماء لا يأكل شيئاً مخافة العطش. {أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ} أي تقدحونها عن كل عود غير العناب وهو الشجر الأحمر، {أَءَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ} أي الشجرة التي تصلح لإيقاد النار {أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ} أي بل نحن المنشئوون لها بقدرتنا لا أنتم؟ {نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً} لنار جهنم فيجب على العاقل إذا رأى النار الموقدة أن يخشى عذاب الله أو تذكرة لصحة البعث، لأن من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر لا يعجز عن

إيداع الحرارة الغريزية في بدن الميت، {وَمَتَٰعاً لِّلْمُقْوِينَ} أي منفعة للذين ينزلون القوى وهي القفر البعيدة من العمران، وهم الذين أوقدوا النار، لأنهم أحوج إلى النار في الليل لتهرب السباع ويهتدي الضال، {فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ} ولا تقل لغير الله تعالى انه إله فإن الاسم يتبع المعنى والحقيقة، أي إن الكفار اعترفوا بأن الأمور من الله، وإذا طولبوا بالوحدانية قالوا: نحن لا نشرك في المعنى وإنما نتخذ أصناماً آلهة في الاسم، ونسميها آلهة والله هو الذي خلقها، فنحن ننزهه تعالى في الحقيقة فقال تعالى: {فَسَبّحْ بِٱسْمِ رَبّكَ ٱلْعَظِيم} أي فكما أنت أيها العاقل اعترفت بعدم اشتراك الله مع غيره في الحقيقة اعترف بعدم اشتراكهما في الاسم.

{فَلاَ أُقْسِمُ} قيل: «لا» مزيدة مؤكدة. وقيل: الأصل فلاناً أقسم، فحذف المبتدأ، وأشبعت فتحة لام الابتداء، ويعضده قراءة من قرأ «فلأقسم» بلام التأكيد. وقيل: إن «لا» نافية، رد لكلام يخالف المقسم عليه، والتقدير: والله لا صحة لقول الكفار أقسم {بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ} أي بمواضعها في السماء في منازلها.

وقرأ حمزة والكسائي «بموقع النجوم» بسكون الواو، أي بموضع سقوطها عند غروبها {وَإِنَّهُ} أي إن القسم بها {لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}، أي لو تعلمون عظمة القسم لعظمتم هذا القسم، لكنكم ما عظمتونا، لأنكم لا تعلمون ولا وقف هنا، لأن القسم وقع على ما بعده، {إِنَّهُ} أي إن الكلام الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم {لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ} أي كثير النفع لاشتماله على إصلاح المعاش والمعاد، {فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ} أي في كتاب محفوظ عن الباطل، وهو المصحف، الذي في أيدينا، {لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ} أي لا يمس ذلك الكتاب إلاّ المطهرون من الأحداث، أي يحرم عليهم مسَّه بدون الطهارة. وهذه الجملة صفة ثانية ل «كتاب»، فالخبر بمعنى النهي ويؤيد هذا قراءة عبد الله بن مسعود «ما يمسه» ب «ما» النافية. وروى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم، وهو من أهل الظاهر لا يمس القرآن إلاّ طاهر.

وقال ابن عمر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تمس القرآن إلاّ وأنت طاهر» {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} صفة ثالثة ل «قرآن» أي منزل من الله تعالى، وفي ذلك رد على قول من قال: إن القرآن شعر، أو سحر، أو كهانة، وفي هذا رد على الذين يقولون: إن القرآن في كتاب ولا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة ورد على الروافض الذي يقولون: إن جبريل أنزل على علي فنزل على محمد. فقال تعالى: هو من الله ليس باختيار الملك.

وقرىء «تنزيلاً» بالنصب حال من قرآن، {أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ} أي أفبهذا القرآن أنتم يا أهل مكة متهاونون به. ويقال: أفبهذا الكلام الذي تتحدثون به أنتم تلينونه لأصحابكم من شأن محمد والبعث، والحساب، والجنة، والنار تعلمونهم خلافه، {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} أي تجعلون معاشكم تكذيب محمد، لأنكم تخافون إن صدقتموه

ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر أن يفوت عليكم من كسبكم ما تربحونه بسببهم فتجعلون رزقكم أنكم تكذبون الرسل.

وقرىء «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»، أي تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به، {فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ} أي فلم لا تكذبون الرسل إذا بلغت الروح الحلقوم، والحال أنكم وقت النزع تشاهدون الأمور وتعلمونها. وهذا إشارة إلى أن كل أحد يؤمن عند الموت لكن لم يقبل إيمان من لم يؤمن قبله، {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ} أي ونحن أقرب إلى الميت من أهله الحاضرين عنده بعلمنا وقدرتنا، ولكن لا تدركون ذلك لجهلكم بشؤوننا، {فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ}، أي فلم لا تردون الروح إلى الجسد عند بلوغها الحلقوم إن كنتم غير مجزيين وغير محاسبين إن كنتم صادقين في اعتقادكم أي إنكم إذا كنتم لستم تحت قدرة أحد فلم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا مع أن ذلك مشتهى أنفسكم ومنى قلوبكم كما كنتم في الدنيا التي ليست دار جزاء، {فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ} أي فأما إن كان المجزى من المقربين السابقين فله راحة. وقرأ بعضهم بضم الراء، أي فله حياة دائمة، أو رحمة، لأنها كالحياة للمرحوم {وَرَيْحَانٌ}، أي رزق عظيم أو زهرة فقد قيل: إن أرواح أهل الجنة لا تخرج من الدنيا إلاّ ويؤتى إليهم بريحان من الجنة يشمونه، {وَجَنَّتُ نَعِيمٍ} أي بستان ذات تنعم ليس فيها غيره، {وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ} أي إن مكانة النبي صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى المقربين الذين هم في عليين، كأصحاب الجنة بالنسبة إلى أهل عليين فكأن الله تعالى قال: هؤلاء الذين هم أهل الجنة وإن كانوا دون الأولين، لكن لا تنقطع بينك يا أشرف الخلق وبينهم المكالمة والتسليم، بل هم يرونك ويصلون إليك وصول جليس الملك إلى الملك، والغائب إلى أهله وولده، وأما المقربون فهم يلازمونك ولا يفارقونك، وإن كنت أعلى مرتبة منهم.

{وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ}، أي وأما إن كان المجزى من المنكرين للبعث الضالين عن سبيل الله، فله ضيافة من ماء حار يشربه بعد أكل الزقوم {وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} أي وإدخال في النار واحتراق بها، {إِنَّ هَٰذَا} أي ما ذكر في هذه السورة {لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ} أي نهاية اليقين، {فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ} لم بين الله تعالى الحق وامتنع الكفار قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: هذا هو حق فإن امتنعوا، فسبح ربك في نفسك وما عليك من قومك سواء صدقوك أو كذبوك.

سورة الحديد

مدنية أو مكية، تسع وعشرون آية، وخمسمائة وأربع وأربعون كلمة، وألفان وأربعمائة وستة وسبعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. سَبَّحَ للَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي أبعد الخلق ذات الله تعالى من أن يكون محلاً للإمكان وصفاته من أن تكون متغيرة، وأفعاله من أن تكون موقوفة على مادة ومثال، {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ﭐلۡحَكِيمُ} أي وهو القادر الغالب الذي يفعل أفعاله على وفق الحكمة والصواب. {لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ} أي له التصرف فيهما وفيما فيهما من الموجودات {يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ} أي هو قادر على خلق الحياة والموت، ومنفرد بإيجادهما لا يمنعه تعالى عنهما مانع، ولا يرده عنهما راد. {هُوَ ٱلۡأَوَّلُ} أي ليس قبله شيء، {وَٱلۡأٓخِرُ} أي ليس بعده شيء فهو الباقي بعد فناء سائر الموجودات، {وَٱلظَّٰهِرُ} بحسب الدلائل، {وَ ٱلۡبَاطِنُ} أي المحتجب عن الأبصار. وعن الحواس وعن إدراك حقيقة ذاته في الدنيا والآخرة {وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ} لا يعزب عن علمه شيء من المظاهر، والخفي، {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ} من أيام الدنيا تعلماً للعباد في التأني للأمور {ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ}، أي تصرف في ملكة تصرفاً تاماً {يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ} من المياه والكنوز والأموات، {وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا} من النبات والمياه والمعادن والأموات، {وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ} من الأمطار والملائكة والمصائب والحر والبرد، {وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ} من الحفظة والأعمال {وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ} بسبب القدرة والإيجاد والتكوين وبسبب العلم، فهو كونه تعالى عالماً بظواهرنا وبواطننا لا بالمكان والجهة.

قال المحققون: ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله. وقال المتوسطون: ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله معه. وقال الظاهريون: ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله بعده. {وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ} فيجازيكم به {لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ} أي جميع الأمور في الآخرة حيث لا مالك سواه. وقرأ الأخوان وابن عامر بفتح التاء وكسر الجيم {يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ}، فيزيد النهار {وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ}، فيزيد الليل {وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} أي بمكنونات القلوب من نياتهم. {ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ} وهذا خطاب مع من عرف الله، فالمقصود من هذا الأمر معرفة صفات الله، أما معرفة وجود الصانع فحاصلة للكل، {وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ} أي من الأموال التي في أيديكم التي جعلكم الله بمنزلة الوكلاء فيها، تحفظونها لمن يأتون بعدكم فلا ينبغي لكم البخل بها، فالصواب أن تصرفوها في الوجوه التي تنفعكم في المعاد، {فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ} أموالهم في طاعة الله {لَهُمۡ} بسبب ذلك، {أَجۡرٞ كَبِيرٞ} لا تبلغ عقولكم حقيقة كبره، {وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ} أيّ أي شيء يحصل لكم غير مؤمنين بالله، والحال أن الرسول يدعوكم للإيمان به، والحال أن الله قد نصب الدلائل الموجبة لقبول دعوة الرسول في العقول فقد تطابقت دلائل النقل والعقل، وسميت الدلائل المستلزمة وجوب القبول ميثاقاً، لأنها أوكد من الحلف {إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ}، أي إن كنتم تؤمنون بشيء لأجل دليل، فما لكم لا تؤمنون الآن فإنه قد تطابقت الدلائل النقلية والعقلية، وبلغت مبلغاً لا يمكن الزيادة عليها. وقرأ أبو عمرو «أخذ ميثاقكم» بالبناء للمفعول، وبرفع ميثاقكم، أي مكن عقولكم من النظر في الأدلة، {هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ} محمد عليه الصلاة والسلام {ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ} وهي القرآن، {لِّيُخۡرِجَكُم} أي الله أو العبد بتلك الآيات، {مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ} أي

من الكفر إلى الإيمان، {وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات بعد نصب الأدلة العقلية،

{وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي وأيّ شيء يحصل لكم يا معشر المؤمنين في أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة، والحال أنه لا يبقى لكم شيء منها، بل يبقى كله لله تعالى، فإنكم ستموتون فتورثون، أي وذلك لأن المال لا بد من خروجه عن اليد، إما بالموت وإما بالإنفاق في طاعة الله، فإن خرج عن اليد بغير الإنفاق في طاعة الله استعقبه اللعن والعقاب، وإن خرج عنها بالإنفاق في مرضاة الله استعقبه المدح والثواب، {لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ} أي لا يستوي منكم يا معشر المؤمنين عند الله في الفضل من أنفق من قبل فتح مكة، وقاتل أعداء الله، ومن أنفق وقاتل من بعد فتح مكة وقوة الإسلام. وقرىء «قبل الفتح» بغير «من»، {أُوْلَٰئِكَ} أي المنعوتون بذينك النعتين الجميلين {أَعْظَمُ دَرَجَةً}، وأرفع منزلة عند الله {مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ}. وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، فإنه من آمن وأنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً شديداً، أشرف به على الهلاك. قال عمر: كنت قاعداً عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر عليه عباءة قد خللها في صدره بخلال، فنزل عليه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال: ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة خللها في صدره بخلال؟ فقال: «أنفق ماله علي قبل الفتح» قال: فإن الله عز وجل يقول: اقرأ عليه السلام وقل له: أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال: أبو بكر أأسخط على ربيٰ إنيٍ عن ربي راض. {وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ} أي وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى وهي الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ ابن عامر «وكل» بالرفع على الابتداء، أي وكل وعده الله الحسنى، {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} فيوصل الثواب إليكم بحسب استحقاقكم له {مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً} أي من ذا الذي ينفق ماله في طاعته تعالى بالصدق من قلبه رجاء أن يعوضه.

وقال بعض العلماء: لا يكون القرض حسناً حتى يجمع أوصافاً عشرة:

الأول: أن يكون القرض من الحلال.

والثاني: أن يكون من أكرم ما تملكه دون أن تنفق الرديء.

والثالث: أن تصدق بما تملكه وأنت تحتاج إليه بأن ترجو الحياة.

والرابع: أن تصرف صدقتك إلى الأحوج.

والخامس: أن تكتم الصدقة ما أمكنك.

والسادس: أن لا تتبعها مناً ولا أذى.

والسابع: أن تقصد بها وجه الله ولا ترائي.

والثامن: أن تستحقر ما تعطي وإن كثر.

والتاسع: أن يكون المعطى من أحب أموالك إليك.

والعاشر: أن لا ترى عز نفسك وذل الفقير بل ترى نفسك تحت دين الفقير، وترى الفقير كأن الله تعالى أحال عليك رزقه الذي قبله منك. {يُضَٰعَفُ لَهُمْ} أي فيعطيه الله أجره أضعافاً. وقرأ عاصم بالألف والنصب، ونافع

وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالألف والرفع، وابن كثير بالتشديد في العين والرفع، وابن عامر بالنصب. فالرفع على العطف على «يقرض» أو على الاستئناف على تقدير مبتدأ، أي فهو يضاعفه، والنصب على جواب الاستفهام بالفاء. {وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} أي وللقرض ثواب حسن في نفسه، حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضعَّف فكيف وقد ضُعِّف أضعافاً كثيرة إلى أكثر من سبعمائة نزلت هذه الآية في أبي دحداح، {يَوْمَ} ظرف لقوله تعالى: {فَيُضَاعِفَهُ} أو للاستقرار العالم في وله أجر، أي استقر له أجر يوم {تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم}، وهذا النور هو ما يكون سبباً للنجاة وإنما قال تعالى: {بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم} لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم وراء ظهورهم، فإذا مروا على الصراط يسعى معهم نور الإيمان والأعمال المقبولة أمامهم، ونور الإنفاق في جهة أيمانهم، لأن الإنفاق يكون بالإيمان ومراتب الأنوار مختلفة على قدر الأعمال، فمنهم من يضيء له نوره كما بين عدن وصنعاء ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من لا يضيء له نوره إلاّ موضع قدميه وأدناهم نوراً من يكون نوره على إبهاميه ينطفىء مرة ويتقد أخرى، وهذا القول منقول عن ابن مسعود وقتادة وغيرهما.

وقرأ سهل بن شعيب وأبو حيوة وبأيمانهم بكسر الهمزة أي وبسبب أيمانهم حصل سعي ذلك النور، {بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ} أي تقول لهم الملائكة على الصراط: بشارتكم العظيمة في هذا الوقت دخولكم جنات، {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا} وهو حال من ضمير المخاطب المقدر، {ذَٰلِكَ} أي ما تقدّم من النور والبشرى بالجنات المخلّدة {هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} الذي لا غاية وراءه.

وقرىء «ذلك الفوز العظيم» بإسقاط كلمة هو. {يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَ ٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ} لما رأوهم يسرع بهم إلى الجنة و «يوم» بدل من «يوم ترى»، أو أن العامل فيه «ذلك هو الفوز العظيم». {ٱنظُرُونَا} أي انظروا إلينا أي، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، والنور أمامهم فيستضيئون. به وقرأ حمزة «أنظرونا» بقطع الهمزة وكسر الظاء أي انتظرونا لنلحق بكم، {نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} أي نستضيء بنوركم. {قِيلَ} أي قال لهم المؤمنون قول تنديم وتوبيخ: {ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُوراً} أي ارجعوا إلى الموقف حيث أعطينا النور فاطلبوا نوراً هناك. وقيل: ارجعوا إلى دار الدنيا، فالتمسوا هذه الأنوار هنالك.

وقال أبو مسلم: المراد من قول المؤمنين {ٱرْجِعُواْ} إلخ منع المنافقين عن الاستضاءة لا أمر لهم بالرجوع أي تنحّوا عنا، فلا سبيل لكم إلى وجدان هذا المطلوب ألبتة، فيرجعون في طلب النور {فَضُرِبَ بَيْنَهُم} أي بني بين الفريقين {بِسُورٍ} الباء زائدة، أي حائط بين الجنة والنار كما قاله قتادة أو حجاب، كما في سورة الأعراف، كما قاله مجاهد. وقال: من قال: ارجعوا إلى دار الدنيا. والمراد من ضرب السور هو امتناع العود إلى الدنيا، {لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ} أي لذلك السور باب في باطن ذلك السور الجنة التي فيها المؤمنون، {وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ} أي وخارج السور من

جهته النار، فالمؤمنون يدخلون الجنة من باب ذلك السور، والكافرون يبقون في العذاب، {يُنَادُونَهُمْ} أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء السور {أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ} في الدنيا على الغزوات والعبادات؟ {قَالُواْ بَلَىٰ}، أي يقول المؤمنون: بلى، قد كنتم معنا في الظاهر، {وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ} أي أهلكتموها بكفر السر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات، {وَتَرَبَّصْتُمْ} أي أخرتم أنفسكم عن التوبة من النفاق، وانتظرتم موت رسول الله وحوادث السوء على المؤمنين، {وَ ٱرْتَبْتُمْ} أي شككتم في نبوة محمد، وفي البعث، وفي وعيد الله، {وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ} أي الأباطيل وهي ما كانوا يتمنون من نزول الحوادث بالمؤمنين، ومن انتكاس أمر الإسلام {حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ} أي حتى جاءكم وعد الله بالموت على غير التوبة من النفاق، أي حتى أماتكم الله وألقاكم في النار {وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ}، بفتح الغين، أي الشيطان لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة.

وقرأ سماك بن حرب بضم الغين، والمعنى: وغركم عن طاعة الله سلامتكم من أباطيل الدنيا مع الاغترار بأمتعة الدنيا {فَ ٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي فاليوم لا يقبل منكم يا معشر المنافقين فداء ولا من الذين أظهروا الكفر. وقرأ ابن عامر «تؤخذ» بالتأنيث. {مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ} أي منزلكم النار، {هِيَ مَوْلَٰكُمْ} أي هي موضعكم الذي تصلون إليه {وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ}، أي بئس المرجع هذه النار.

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ}؟ قرأ نافع وحفص والمفضل عن عاصم بتخفيف الزاي، والمعنى: ألم يجيء وقت أن تخشع قلوب المؤمنين لذكرهم الله، ولما نزل من القرآن، وينقادوا لأوامره ونواهيه انقياداً تاماً. وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم بتشديد الزاي، أي ولما نزّله الله من القرآن. وعن أبي عمرو «نزل» مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن البصري «ألم يئن» بكسر الهمزة وسكون النون.

وقرأ الحسن «ألما يأن»، وعن الأعمش قال: إن الصحابة لما قدموا المدينة أصابوا ليناً في العيش ورفاهية، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا بهذه الآية. {وَلَا يَكُونُواْ كَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ}، أي هذا إما معطوف على «تخشع»، ف «لا» نافية، أي وألم يأن وقت أن لا يكونوا كاليهود والنصارى من قبل ما نزل إليكم، والمراد نهي المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب، بعد أن وبخوا، وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والانجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم، وإما جزم «بلا» الناهية، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ بالتاء على سبيل الالتفات، {فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ} أي طالت المدة بينهم وبين أنبيائهم. وقيل: أي طالت أعمارهم في الغفلة. وقيل: طال عليهم الزمان بطول الأمل. وقال ابن عباس: أي مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله. وروي عن ابن كثير الأمد بتشديد الدال، أي الوقت الأطول فزالت عنهم الروعة التي كانت تأتيهم من الكتابين. {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} للمواعظ بسبب الطول {وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ}، أي خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين من أجل فرط قسوتهم. وهذا إشارة إلى أن عدم

الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق في آخر الأمر، { ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّـهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي أن الله يلين القلوب بالخشوع الناشىء عن الذكر وتلاوة القرآن بعد قساوتها كما يحيي الله الأرض بالغيث بعد يبوستها، كذلك يحيي الله الموتى من القبور بالمطر، و {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ} الدالة على قدرتنا على إحياء الموتى {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي لكي تكمل عقولكم فتصدقوا بالبعث بعد الموت، {إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَ ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَٰعَفُ لَهُمْ}.

وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر بتخفيف الصاد من التصديق، أي إن الذين آمنوا من الرجال والنساء وتصدقوا صدقة واجبة، أو تطوعاً عن طيبة النفس وخلوص النية على المستحق للصدقة يضاعف لهم إلى ألفي ألف إلى ما شاء الله من الأضعاف.

وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بتشديد الصاد من التصدق. وقرأ أبي «إن المتصدقين والمتصدقات»، والمعنى: إن الذين أعطوا الصدقة من الرجال والنساء وعملوا الصالحات إلخ لأن إقراض الله من الأعمال الصالحة وهو تقديم الحسنات.

وقرأ ابن كثير وابن عامر «يضعّف لهم» بتشديد العين، والجار والمجرور نائب الفاعل. {وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} أي ثواب حسن في الجنة {وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ} وهم الذين آمنوا بالرسل حين أتوهم، ولم يكذبوهم ساعة قط مثل آل ياسين، ومؤمن آل فرعون، وأما في أمة محمد فهم ثمانية سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام، أبو بكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وتاسعهم عمر بن الخطاب. ألحقه الله تعالى بهم لما عرف من صدق نيته كما قاله الضحاك ومقاتل ويقال: الصدِّيق هو الذي يحمل الأمر على الأشق، ولا ينزل إلى الرخص، ولا يميل إلى التأويلات، {وَٱلشُّهَدَآءُ} وهذا إما معطوف على ما قبله ويجوز الوقف هنا، وهم عدول الآخرة الذين تقبل شهادتهم.

وقال الضحاك: هم التسعة الذين سميناهم رضي الله عنهم. وقال مقاتل ومحمد بن جرير: هم الذين استشهدوا في سبيل الله. وقال الفراء والزجاج هم الأنبياء. ف «أولئك» مبتدأ ثانٍ و «هم» مبتدأ ثالث، و «الصديقون» خبر «هم»، وهو مع خبره خبر للثاني، وهو مع خبره خبر للأول، أي أولئك عند الله بمنزل ة الصديقين والشهداء بعلو الرتبة ورفعة المحل. وإما مبتدأ وخبره إما {عِندَ رَبِّهِمْ} وإما {لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} وعلى هذا فالوقف على الصدّيقون تام. والأظهر أن جملة لهم أجرهم من مبتدأ وخبر محلها رفع على أنه خبر ثانٍ للموصول والضمير الأول للموصول والأخيران للصدِّيقين والشهداء. وهذه الجملة بيان لثمرات ما وصفوا به من نعوت الكمال، أي للذين آمنوا مثل أجر الصدِّيقين والشهداء ونورهم، المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال، فالمماثلة بين تمام ما للأول من الأصل والأضعاف، وبين ما للآخرين من الأصل بدون الأضعاف، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد، ولما ذكر الله تعالى حال المؤمنين أتبعه بذكر حال الكافرين فقال: {وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِأَايَٰتِنَآ} الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا {أُوْلَٰٓئِكَ} الموصوفون بتلك

الصفة القبيحة، {أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ} بحيث لا يفارقونها أبـداً، ولمـا ذكـر اللـه تعالى أحوال المؤمنين والكافرين ذكر ما يـدل علـى حقـارة الـدنيا، وكمـال حال الآخرة { ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَـا ٱلْحَيَـوٰةُ ٱلـدُّنْيَا لَعِـبٌ} وهـو فعـل الصـبيان الـذي يتعبون أنفسهم جداً ثم إن تلك المتاعب تنقضـي مـن غيـر فائـدة، {وَلَهْـوٌ} وهو فعل الشبان، فبعد انقضائه لا يبقى إلا التحزن، لأن العاقل يـرى المـال ذاهباً والعمر ذاهباً، {وَزِينَةٌ} وهو دأب النسوان، لأن المطلـوب مـن الزينـة تحسين القبيح وتكميل الناقص، {وَتَفَـاخُرٌ بَيْنَكُـمْ} كتفـاخر الأقـران يفتخـر بعضهم على بعض بالنسب، أو بالقوة، أو بالقدرة، أو بالعساكر وكلها ذاهبة، {وَتَكَاثُرٌ} أي مبالغة في الكثرة {فِى ٱلأَمْوَٰلِ وَٱلأَوْلْـٰدِ}. فالحيـاة الـدنيا غيـر مذمومة وإنما المذموم من صرف هذه الحياة إلى طاعة الشيطان، ومتابعة الهوى لا إلى طاعة الله تعـالى، والمعنـى: اعلمـوا أن شـغل البـال بالحيـاة الدنيا دائر بين هـذه الأمـور الخمسـة، {كَمَثَـلِ غَيْـثٍ} أي صـفة الـدنيا فـي إعجابهـا كصـفة مطـر {أَعْجَـبَ ٱلْكُفَّـارَ نَبَـاتُهُ} أي أعجـب الـزراع النبـات الحاصل بالمطر وسمي الزارع كافراً، لأنه يغطي البذر بـتراب الأرض، {ثُـمَّ يَهِيـجُ} أي يجـف النبـات {فَتَـرَاهُ مُصْـفَرّاً} بعـد مـا رأيتـه ناضـراً، وقرىـء «مصفاراً»، {ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً} أي ثم يصير النبات متكسراً، {وَفِى ٱلأَخِـرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ} لمن كانت حياته بهذه الصفة {وَمَغْفِـرَةٌ مِّـنَ ٱللَّـهِ وَرِضْـوَٰنٌ} لأوليائه، وأهل طاعته والرضوان أعظم درجات الثواب، {وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلـدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ} لمن أقبل عليها وأعرض بها عن طلب الآخرة.

قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضولن اللَّه وطلب الآخرة فنعم المتـاع ونعـم الوسـيلة {سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} أي سارعوا إلى سـائر مـا كلفتـم بـه، فـإن المسـارعة إلـى ذلـك تـؤدي إلـى مغفـرة {وَجَنَّـةٍ عَرْضُـهَا كَعَـرْضِ ٱلسَّـمَآءِ وَٱلأَرْضِ}، أي لو جعلت السمٰوات السـبع والأرضـون السـبع وألـزق بعضـها ببعض، لكان عرض الجنة في عرض جميعهـا، {أُعِـدَّتْ لِلَّـذِينَ ءَامَنُـواْ بِـٱللَّهِ وَرُسُلِهِ} أي هيئت الجنة للمؤمنين من جميع الأمم، {ذَلِكَ} الموعود به من المغفرة والجنة، {فَضْلُ ٱللَّهِ} أي عطاؤه، {يُـؤْتِيهِ مَـن يَشَـآءُ} إيتـاءه إيـاه {وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ}. وهذا تنبيه على عظم حـال الجنـة {مَـآ أَصَـابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلأَرْضِ} هـي قحـط المطـر، وقلـة النبـات، ونقـص الثمـار، وغلاء الأثمار، وتتـابع الجـوع {وَلاَ فِىۤ أَنفُسِـكُمْ} وهـي الأمـراض، والفقـر، وذهاب الأولاد، وإقامة الحدود على الأنفس، {إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ} أي مكتوب في اللوح المحفوظ {مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ} أي أن نخلق هذه المصائب والأنفـس والأرض، {إِنَّ ذَلِكَ} أي إن إثبات كل ذلك مع كثرته في الكتاب {عَلَى ٱللَّـهِ يَسِيرٌ}، وإن كان عسيراً على العباد.

{لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ} أي أخبرناكم بذلك لئلا تحزنوا حزناً زائداً على ما في أصل الجبلة على ما فـاتكم مـن نعـم الـدنيا، {وَلاَ تَفْرَحُـواْ بِمَـآ ءَاتَٰكُمْ} أي بما أعطاكم الله تعـالى منهـا، فـإن مـن علـم أن الكـل مقـدر لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت. وقـرأ أبـو عمـرو «أتـاكم» بقصر الهمزة، أي بما جاءكم من الله. وقرىء «بما أوتيتم»، والمـراد: نفـي الحزن المانع عن التسليم لأمر اللـه تعـالى، ونفـي الفـرح المـوجب للبطـر

والاختيال، {ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ} بأداء حق الله تعالى {وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ}. وذلك نتيجة فرحهم عند إصابة النعم والموصول صفة لكل مختال فخور. وقيل: مستأنف لا تعلق بما قبله وهو مبتدأ خبره محذوف، وهو بيان لصفة اليهود، والمعنى. الذين يبخلون ببيان صفة النبي التي في كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم، ويأمرون الناس بالبخل به لهم تهديد شديد، {وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ} أي ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه فلا يعود عليه ضرر ببخل البخيل، حميد في ذلك الإعطاء مستحق حيث فتح أبواب نعمته.

وقرأ نافع وابن عامر «فإن الله الغني» بحذف لفظ هو. {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا} أي الأنبياء إلى الأمم {بِٱلْبَيِّنَٰتِ} أي الدلائل القاهرة والمعجزات الظاهرة، {وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} أي أنزلنا إليهم الكتاب وهو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية، لأن به يتميز الحق من الباطل، والحجة من الشبهة، {وَٱلْمِيزَانَ} هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال البدنية، وهو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص، {لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ} أي ليتعاملوا فيما بينهم بالعدل، {وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} أي قوة شديدة وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي. والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية، والميزان إشارة إلى القوة العملية والحديد إشارة إلى دفع ما لا ينبغي. {وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ} أي لأمتعتهم مثل السكاكين، والفاس، والمبرد وغير ذلك، وما من صنعة إلا والحديد آلتها، {وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ} أي وليعلم الله من ينصر دينه ورسله باستعمال السيوف، والرماح، وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين، حال كونه تعالى غائباً عنهم، أي ينصرونه تعالى ولا يبصرونه، {إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ} على الأمور قادر على إهلاك جميع أعدائه، {عَزِيزٌ} أي لا يمانع ولا يفتقر إلى نصرة أحد بل وإنما ليصلوا بامتثال الأمر في الجهاد إلى الثواب، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَ ٱلْكِتَٰبَ} فما جاء بعدهما أحد بالنبوة، إلاّ وكان من أولادهما، وكانت الكتب الأربعة في ذرية إبراهيم، وهو من ذرية نوح، فإنه الأب الثاني لجميع البشر، {فَمِنْهُمْ} أي الذرية {مُّهْتَدٍ} إلى الحق {وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ}، أي خارجون عن الطريق المستقيم {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم}، أي نوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم {بِرُسُلِنَا} أي أرسلنا بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام، {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ}، أي جعلناه متأخراً عنهم في الزمان {وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلإِنجِيلَ} أي أعطيناه الانجيل. وقرأ الحسن بفتح همزة «أنجيل» تنبيهاً على كونه أعجمياً، وأنه لا يلزم فيه مراعاة أبنية العرب {وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ} على دينه {رَأْفَةً} أي ليناً {وَرَحْمَةً}، أي شفقة أي وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم. وقرىء «رآفة» على وزن فعالة، {وَرَهْبَانِيَّةً}. وقرىء بضم الراء {ٱبتَدَعُوهَا}، أي أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها أي وفقناهم لاستحداث الرهبانية لينجوا من فتنة بولس اليهودي.

وروى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يا ابن مسعود، أما علمت أن بني إسرئيل تفرقوا سبعين فرقة كلها في النار إلاّ ثلاث فرق:

فرقة آمنت بعيسى عليه السلام وقاتلوا أعداء الله في نصـرته حـتى قتلـوا، وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين فلبسوا العبـاء وخرجـوا إلـى القفـار والفيـافي». {مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ} أي لم نفرض الرهبانية عليهم. وهذه الجملة صـفة ثانيـة لرهبانية، {إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ} أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضـوان اللـه، {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} أي فما حفظوا الرهبانية حق حفظها، لأنهم أتوها لطلب الدنيا والرياء والسمعة {فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بمحمـد {مِنْهُمْ} أي الرهبان {أَجْرَهُمْ} وهم الذين لم يخالفوا دين عيسى ابن مريم، وهم أربعـة وعشرون رجلاً في أهل اليمن، جـاءوا إلـى النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وآمنوا به، ودخلوا في دينه أي لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق من الرهبان إلا قليل، انحط رجـل مـن صـومعته وجـاء سـائح مـن سـياحته، وصاحب دير من ديره، فآمنوا به صلى الله عليـه وسـلم وصـدقوه، {وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ} ي من الرهبان {فَٰسِقُونَ} أي تاركون تلك الطريقة ظاهراً وباطنـاً، وهم الذين خالفوا دين عيسى، فقال الله تعالى في حق قوم عيسى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بعيسى وبالرسل المتقدمة، {ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} فيمـا نهـاكم عنـه {وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ} محمـد عليـه الصـلاة والسـلام {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ}، أي نصيبين {مِن رَّحْمَتِهِ} لإيمانكم أولاً: بعيسـى عليـه السـلام، وثانيـاً: بمحمـد صلى الله عليـه وسـلم، ولا يبعـد أن يثـابوا علـى دينهـم السـابق، وإن كـان منسوخاً ببركة الإسلام {وَيَجْعَل لَّكُمْ} يوم القيامة {نُوراً تَمْشُونَ بِهِ} على الصراط وبيـن النـاس {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} مـا أسـلفتم مـن الكفـر والمعاصـي، {وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي مبـالغ فـي المغفـرة والرحمـة، {لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ}، لأنه قادر مختار يفعل بحسب الاختيار، و «لا» زائدة كما يـدل عليـه قـراءة «ليعلـم» و «لكـي يعلـم»، و «لأن يعلـم». وقـوله تعـالى: {وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ} عطف على {أَن لا يَقْدِرُونَ}، والمعنى: إنما بالغنا في هـذا البيـان وأطنبنا في الوعد والوعيد، ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضـل اللـه بقـوم معينيـن، ولا يمكنهـم حصـر الرسـالة والنبـوة فـي قـوم مخصوصـين، وأن الفضـل فـي تصـرف اللـه تعـالى يعطيـه مـن يشـاء، ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً. والمقصود مـن هـذه الآيـة أن يزيـل اللـه عـن قلوب بني إسرائيل اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم، وغيـر حاصـلة إلاّ فـي قومهم وقيل: إن لفظة «لا» غير زائدة والضـمير فـي قـوله تعـالى: {أَن لا يَقْدِرُونَ} عائد إلى الرسول وأصحابه: وقـوله تعـالى: {وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ} ألـخ عطف على «أن لا يعلم». والمعنى: أنا فعلنـا ذلـك لئلا يعتقـد أهـل الكتـاب وهم بنو إسرائيل أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضـل اللـه الذي هو سعادة الدارين، وليعتقدوا أن الفضل في ملكه تعالى على أن عدم علمهم بعدم قدرتهم على ذلك، كناية عن علمهم بقـدرتهم عليـه، فـإنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه فقد علمـوا أنهـم يقـدرون عليـه، {وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} فإن العظيم لا بد وأن يكون إحسانه عظيماً.

سورة المجادلة

مدنية، ثنتان وعشرون آية، وأربعمائة وثلاث وسبعون كلمة، وألف وسبعمائة، واثنان وسبعون حرفاً، هذه السورة أول النصف الثاني من القرآن باعتبار عدد السور، فهي الثامنة والخمسون منها، وأول العشر الآخير من القرآن باعتبار عدد أجزائه، وليس فيها. آية إلا وفيها ذكر الجلالة مرة أو مرتين أو ثلاثاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قَدْ سَمِعَ ٱللَّـهُ قَـوْلَ ٱلَّتِى تُجَادِلُـكَ فِى زَوْجِهَا} أي قد أجاب الله دعاء المرأة التي تخاصمك أيها النبي في شأن زوجها وتلك المجادلة أنه صلى الله عليه وسلم كلما قال لها: «حرمت عليه» قالت: والله ما ذكر طلاقاً بأن أنزل الله حكم الظهار على ما يوافق مطلوبها، {وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ} بأن قالت رافعة رأسها إلى السماء: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، وقالت: إن لي صبية صغاراً، {وَٱللَّـهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمآ} أي مراجعتكما في الكلام، {إِنَّ ٱللَّـهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي يسمع كلام من يناديه، ويبصر من يتضرع إليه.

روي عن خولة بنت ثعلبة بن مالك بن الدخشم الأنصارية كانت تحت أوس بن الصامت الأنصاري، رآها زوجها وهي ساجدة في الصلاة، وكانت حسنة الجسم، فنظر إلى عجيزتها، فأعجبه أمرها، فلما سلمت من الصلاة طلب وقاعها، فأبت، فغضب عليها، وكان به لمم، أي توقان إلى النساء. وقيل: مس من الجن، فأراد أن يأتيها على حال لا تؤتى عليها النساء، فأبت عليه، فغضب وقال: إن خرجت من البيت قبل أن أفعل بك، فأنت علي كظهر أمي، ثم ندم على ما قال. وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب في فلما كبر سني وكثر ولدي، جعلني كأمه وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، وكلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حرمت عليه» هتفت وشكت إلى الله، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، فأنزل على لسان نبيك فرجي، فبينما هي كذلك إذ تربّد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أرسل إلى زوجها وقال: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال الشيطان: فهل من رخصة؟ فقال: «نعم». وقرأ عليه الأربع آيات وقال له: «هل تستطيع العتق؟» فقال: لا، والله. فقال: «هل تستطيع الصوم؟» فقال: لا والله، لولا أني آكل في اليوم مرة أو مرتين لكلَّ بصري ولظننت أني أموت. فقال له: «هل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟» فقال: لا والله يا رسول الله إلا أن تعينني منك بصدقة، فأعانه رسول الله بخمسة عشر صاعاً، وأخرج أوس من عنده مثله، فتصدق به على ستين مسكيناً، { ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ} أي

الذين يحرمون نساءهم على أنفسهم، كتحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم ليست نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت.

قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، ويعقوب «يظهرون» بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف «يظاهرون» بفتح الياء وتشديد الظاء وألف. وقرأ أبو العالية وعاصم وحسين يظاهرون بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء وفي قراءة أبيّ «يتظاهرون». وقرأ عاصم في رواية المفضل «أمهاتهم» بالرفع. وقرىء «بأمهاتهم». وجملة «ما هن أمهاتهم» خبر المبتدأ الذي هو الموصول {إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ} أي ما أمهاتهم في الحرمة إلا اللائي ولدنهم، فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من ألحقها الشرع بهن من المرضعات، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، {وَإِنَّهُمْ} أي المظاهرين {لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ ٱلْقَوْلِ} عند الشرع وعند العقل والطبع، {وَزُوراً} أي كذباً، والظهار حرام اتفاقاً، {وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} إما من غير التوبة لمن شاء، أو بعد التوبة إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر، {وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ} إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه كما قال الشافعي وإما باستباحة الوطء والملامسة، والنظر إليها بالشهوة كما قاله أبو حنيفة وإما بالعزم على جماعها كما قاله مالك {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ} أي فالواجب إعتاق رقبة مؤمنة فلا تجزىء كافرة عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: تجزىء أي رقبة كانت سواء كانت مؤمنة أو كافرة. {مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا} أي أن يستمتع كل من المظاهر المظاهر منها بشيء من جهات الاستمتاعات، فلا يباشر المظاهر امرأته، ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر، فإن وطئها قبل أن يكفر استغفر الله وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة، {ذَٰلِكُمْ} أي التغليظ في الكفارة {تُوعَظُونَ بِهِ} أي تزجرون به عن إتيان ذلك المنكر كي تتركوه ولا تعاودوه، {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي من التكفير وتركه، {فَمَن لَّمْ يَجِدْ} أي رقبة {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ} أي فعليه صيام شهرين {مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا} بجميع ضروب المسيس من لمس بيد وغيرها، {فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ} أي الصيام {فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً} لكل مسكين مد من طعام بلده الذي يقتات منه حنطة، أو شعير، أو أرزاً، أو تمراً بمد النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعتبر مد حدث بعده. وقال أبو حنيفة: لكل مسكين نصف صاع من بر، أو دقيق، أو سويق، أو صاع واحد من تمر، أو شعير، ولا يجزئه دون ذلك. {ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي ذلك البيان للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه ولا تستمروا على أحكام الجاهلية من جعل الظهار أقوى أنواع الطلاق، {وَتِلْكَ} أي هذه الأحكام المذكورة {حُدُودُ ٱللَّهِ} التي لا يجوز مجاوزتها، {وَلِلْكَٰفِرِينَ} أي لمن جحد هذه الأحكام وكذب بها، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فإن عجز عن جميع خصال الكفارة لم تسقط عنه، بل هي باقية في ذمته إلى أن يقدر على شيء منها، ولا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفِّر، فإن تهاون بالتكفير حال الإمام بينه وبينها، وأجبره على التكفير، وإن كان الإجبار بالضرب ولا شيء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها، لأن ترك التكفير إضراراً بالمرأة، وامتناع من إيفاء حقها

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ}، أي يعاودونهما، وذلك بالمحاربة مع أولياء الله، أو بالصد عن دين الله وتكذيبه، {كُبِتُواْ} أي أذلوا {كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، أي كما أخزي كفار الأمم الماضية المعادين للرسل عليهم الصلاة والسلام، {وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ}، أي والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات في شأن من خالف الله ورسوله ممن قبلهم من الأمم من إهلاكهم، {وَلِلْكَٰفِرِينَ} بتلك الآيات {عَذَابٌ مُّهِينٌ} أي يذهب بعزهم وكبرهم. {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً} أي مجتمعين في حال واحدة {فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ} تخجيلاً لهم وتشهيراً لحالهم الذي يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد، {أَحْصَٰهُ ٱللَّهُ} أي أحاط الله بجميع أحوال تلك الأعمال من الكمية والكيفية، والزمان والمكان. {وَنَسُوهُ} أي والحال أنهم قد نسوا أعمالهم، لأنهم تهاونوا بها حيث فعلوها، ولم يبالوا بها لجراءتهم على المعاصي، {وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} لا يغيب عنه أمر من الأمور قط،

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ}؟ أي ألم تعلم علماً يقينياً أنه تعالى يعلم ما فيهما من الموجود سواء كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئية منهما {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ} أي ما يوجد من متناجين ثلاثة إلا الله رابعهم، ولا متناجين خمسة إلا الله سادسهم، {وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ} أي من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض.

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في ربيعة وحبيب ابني عمرو وصفوان بن أمية، كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم: هل يعلم الله ما نقول؟ وقال الثاني: يعلم البعض دون البعض. وقال الثالث: إن كان يعلم البعض فيعلم الكل. وفي مصحف عبد الله: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا الله رابعهم، ولا أربعة إلا الله خامسهم، ولا خمسة إلا الله سادسهم ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم، إذا أخذوا في التناجي»، أي فالله تعالى عالم بكلامهم وضميرهم، وسرهم وعلنهم، فكأنه تعالى حاضر معهم ومشاهد لهم.

قرأ ابن عبلة «ثلاثة» و «خمسة» بالنصب على الحال باضمار «يتناجون». وقرأ الحسن والأعمش وابن أبي إسحاق وأبو حيوة ويعقوب «ولا أكثر» بالرفع إما معطوف على محل «نجوى»، أو هو مبتدأ لعطفه على مبتدأ وهو أدنى، وجملة «إلا هو معهم» خبره. وقرىء «ولا أكبر» بالباء المنقوطة من تحت. {ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي يحاسب على ذلك ويجازى على قدر الاستحقاق. وقرأ بعضهم «ينبئهم» بسكون النون. {إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. وهذا تحذير من المعاصي وترغيب في الطاعات، {أَلَمْ تَرَ} أي ألم تنظر يا أشرف الخلق {إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلإِثْمِ} أي بما هو إثم في نفسه كالكذب، {وَٱلْعُدْوَٰنِ} للمؤمنين {وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ} أي مخالفته نزلت في اليهود، كانوا يتناجون فيما بينهم، ويوهمون المؤمنين أنهم يتناجون فيما يحزنهم، فلما أكثروا وذلك شكا المؤمنون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجاتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقرأ حمزة وحده

«ينتجون»، أي ويخص اليهود المنافقين بمناجاتهم. وقرىء «والعدوان» بكسر العين. وقرىء «ومعصيات الرسول»، {وَإِذَا جَآءُوكَ} يا أشرف الخلق {حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ} أي أنهم كانوا يجيئون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون في تحيتهم إياك: السام عليك يا محمد وهم يوهمون أنهم يقولون: السلام عليك فيرد النبي عليهم: وعليكم. والسام بلغتهم: الموت والله تعالى يقول: {وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰ} (النمل: 95) و {يَٰأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ} (المائدة: 14) و {يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ} (الأنفال: 46) {وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ} أي ويقولون: فيما بينهم إذا خرجوا من عند رسول الله أن محمداً لو كان رسولاً، فلم لا يعذبنا الله بما نقول لنبيه على هذا الاستخفاف. وقيل: إنهم قالوا: إن محمداً يرد علينا ويقول: وعليكم السام، فلو كان نبياً كما يزعم لكان دعاؤه علينا مستجاباً ولمتنا، وهذا موضع تعجب منهم فإنهم كانوا أهل الكتاب يعلمون أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يغضبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب فأنزل الله فيهم، {حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ} عذاباً {يَصْلَوْنَهَا} أي يدخلونها {فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ} جهنم أي إن تقديم العذاب إنما يكون بحسب المشيئة والمصلحة فإذا لم تقتض المشيئة والمصلحة تقديم العذاب في الدنيا، فعذاب جهنم يوم القيامة كافيهم في الردع عما هم عليه، {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ} فيما بينكم {فَلاَ تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلإِثْمِ} وهو ما يقبح، {وَٱلْعُدْوَانِ} وهو ما يؤدي إلى ظلم الغير، {وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ} وهو ما يكون خلافاً عليه. وقرىء «فلا تنتجوا» وفلا تناجوا بحذف إحدى التاءين، {وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ} وهو الذي يضاد العدوان، {وَٱلتَّقْوَىٰ} وهو ما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي، {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، أي اتقوا الله في أن تتناجوا دون المؤمنين الذي تجمعون بقهر إليه تعالى يوم القيامة، أي إلى مكان المحاسبة والمجازاة.

{إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ}، أي إنما النجوى السابقة وهي نجوى المنافقين مع اليهود ممتدة من الشيطان، أي إن الشيطان يأمرهم بأن يقدموا عل تلك النجوى التي هي سبب لحزن المؤمنين، وذلك لأن المؤمنين إذا رأوهم متناجين قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا إلى الغزوات أنهم قتلوا، وهزموا، يقع ذلك في قلوبهم ويحزنون له. وقرأ نافع «ليحزن» بضم الياء وكسر الزاي، فحينئذ ففاعله ضمير يعود على «الشيطان»، أي ليحزن الشيطان المؤمنين بتوهمهم أن النجوى في نكبة أصابتهم، {وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي وليس مناجاة المنافقين بضارة المؤمنين شيئاً من الضرر إلا بمشيئة الله، {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ}، فإن من توكل عليه لا يخيب أمله ولا يبطل سعيه. {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ} أي إذا قيل لكم: ليتوسع بعضكم عن بعض فتوسعوا {يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ} في كل ما تريدون التوسع فيه من المكان، والرزق، والصدر، والقبر، والجنة. وهذه الآية تدل على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة. والمراد: من هذا التوسيع إيصال الخير إلى المسلم وإدخال السرور في قلبه.

وقرأ الحسن وداود بن أبي هند «تفاسحوا». وقرأ عاصم «في المجالس» بصيغة الجمع، لأن لكل جالس موضع جلوس على حدة. والباقون «في المجلس» بالتوحيد على أن المراد به الجنس. وقرىء «في المجالس» بفتح اللام. قيل: نزلت هذه الآية في نفر من أهل بدر منهم ثابت بن قيس بن شماس جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان النبي جالساً في صفة صفية يوم الجمعة، فلم يجدوا مكاناً يجلسون فيه، فقاموا على رأس المجلس. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لمن لم يكن من أهل بدر: «يا فلان قم، ويا فلان قم مكانك ليجلس فيه من كان من أهل بدر». وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهية لمن أقامه من المجلس، فأنزل الله فيهم هذه الآية يوم الجمعة.

وروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية في ثابت بن قيس بن شماس وذلك أنه دخل المسجد، وقد أخذ القوم مجالسهم، وكان يريد القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم للوقر الذي كان في أذنيه فوسعوا له حتى قرب منه صلى الله عليه وسلم، ثم ضايقه بعضهم، وجرى بينه وبينهم كلام وذكر للرسول محبة القرب منه، ليسمع منه وأن فلاناً لم يفسح له، فأمر القوم بأن يوسعوا، ولا يقوم أحد لأحد، فنزلت هذه الآية.

مسألة: إذا أمر إنسان أن يبكر الجامع فيأخذ له مكاناً يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع، أما إذا أرسل سجادة لتفرش له في المسجد حتى يحضر هو، فيجلس عليها فذلك حرام لما فيه من تحجير المسجد بلا فائدة {وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ} أي وإذا قيل: ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لإخوانكم فارتفعوا وقوموا إلى الموضع الذي تؤمرون به. وقرىء «انشزوا» بكسر الشين وبضمها، {يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ} أي يرفع الله المؤمنين منكم أيها المأمورون بالتفسح والعالمين منه خاصة درجات بامتثال أوامره تعالى، وأوامر رسوله والموصول الثاني معطوف على الموصول الأول إما من عطف الخاص على العام، أو من عطف الصفات و «درجات» مفعول ثانٍ كأنه قيل: يرفع الله المؤمنين العلماء درجات.

وقال ابن عباس: تم الكلام عند قوله تعالى: {مِّنكُمْ} وينتصب الذين أوتوا بفعل مضمر، أي ويخص الذين أوتوا العلم بدرجات أو يرفعهم إلى درجات.

قال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى أن الله تعالى يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذ فعلوا بما أمروا به. {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} وهذا تهديد لمن لم يمتثل الأمر. وقرىء «يعملون» بالياء التحتية.

{يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوٰكُمْ صَدَقَةً} أي إذا أردتم مناجاة الرسول في بعض شؤونكم المهمة الداعية إلى مناجاته صلى الله عليه وسلم فتصدقوا قبل النجاة، وفائدة هذا التقديم تعظيم مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الإنسان إذا وجد الشيء مع المشقة استعظمه وإن وجده بالسهولة استحقره، ونفع كثير من

الفقراء بتلك الصدقة المقدمة على المناجاة، وتمييز محب الآخرة عن محب الدنيا بتلك الصدقة، فإن المال محك الدواعي. وقال أبو مسلم: إن المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات وإن قوماً من المنافقين تركوا النفاق وآمنوا ظاهراً وباطناً إيماناً حقيقياً، فأراد الله تعالى أن يميزهم عن المنافقين فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عمن بقي على نفاقه الأصلي، وهذا التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه عند الانتهاء إلى الغاية المخصوصة فلا يكون هذا منسوخاً. وقيل: نزلت هذه الآية في أهل الميسرة فإن منهم من كانوا يكثرون المناجاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم دون الفقراء حتى تأذى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والفقراء، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يتناجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بدرهم على الفقراء بكل كلمة {ذَٰلِكَ} أي التصدق {خَيْرٌ لَّكُمْ} في دينكم من الإمساك {وَأَطْهَرُ} لذنوبكم ولقلوبكم من حب المال، لأن الصدقة طهرة {فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ} ما تتصدقون به يا أهل الفقر، فتكلموا مع رسول الله بما شئتم بغير التصدق، {فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي فإن من لم يجد ما يتصدق به كان معفواً عنه، {ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَٰكُمْ صَدَقَٰتٍ} أي أخفتم تقديم الصدقات لما يخوفكم الشيطان به من الفقر وبخلتم يا أهل الميسرة، {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ} ما أمرتم به من إعطاء الصدقات {وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ} بأن أرخص لكم في أن لا تفعلوه {فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات، أي إذا كنتم راجعين إلى الله تعالى وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأطعتم الله ورسوله في سائر الأوامر، فقد كفاكم هذا التكليف، {وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} ظاهراً وباطناً، فهو محيط بأعمالكم ونياتكم {أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم} أي ألم تنظر يا أشرف الخلق إلى المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء {مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ} أي ليس المنافقون منكم أيها المسلمون في السر، ولا من اليهود في العلانية، لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك، {وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ} أي ويقولون: والله إنا لمسلمون، أو إنا لا يشتمون الله ورسوله ولا يكيدون المسلمين. يروى أن عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرته إذ قال: يدخل عليكم اليوم رجل ينظر بعيني شيطان، فدخل رجل عيناه زرقاوان، وهو عبد الله بن نبتل، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لم تسبني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل، فانطلق وجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبوه، فأنزل الله هذه الآية قيل: نزلت في شأن عبد الله بن أبي وأصحابه بولايتهم مع اليهود، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أنهم كاذبون في حلفهم فيمينهم يمين غموس لا عذر لهم فيها {أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ} أي للمنافقين بسبب ذلك {عَذَاباً شَدِيداً} أي متفاقماً لا طاقة لهم به في القبر، {إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} في نفاقهم فيما مضى من الزمان المتطاول، فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه { ٱتَّخَذُوۤاْ أَيْمَٰنَهُمْ} أي حلفهم الكاذبة {جُنَّةً} أي سترة عن دمائهم وأموالهم. وقرأ الحسن

«إيمانهم» بكسر الهمزة أي اتخذوا إظهار إيمانهم لأهل الإسلام وقاية عن ظهور نفاقهم وكيدهم للمسلمين، وسترة عن أن يقتلهم المسلمون، فلما أمنوا من القتل اشتغلوا بصد الناس عن الدخول في الإسلام بإلقاء الشبهات في القلوب وتقبيح حال الإسلام وذلك قوله تعالى: {فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي صرفوا الناس في السر عن دين الله {فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، أي يهانون به في الآخرة {لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلاَ أَوْلَٰدُهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئاً} أي لن تدفع عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئاً من الدفع، {أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ} أي ملاقوها {هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} أي لا يخرجون منها أبداً.

روي أن واحداً منهم قال: لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا فنزلت هذه الآية.

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهِ جَمِيعاً} قيل: هو ظرف لقوله تعالى: {لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، {فَيَحْلِفُونَ لَهُ} أي بين يدي الله ما كنا كافرين ولا منافقين، {كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} في الدنيا {وَيَحْسَبُونَ} في الآخرة {أَنَّهُمْ} بتلك الأيمان الفاجرة {عَلَىٰ شَىْءٍ} من جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما كانوا عليه في الدنيا {أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ}، عند الله في حلفهم أي أنهم لشدة توغلهم في النفاق ظنوا يوم القيامة أنه يمكنهم ترويج كذبهم بالأيمان الكاذبة على علام الغيوب، فكأن هذا الحلف الذميم يبقى معهم أبداً، { ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ} أي غلب على أمور المنافقين الشيطان، {فَأَنسَٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ} فلا يذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم، {أُوْلَٰئِكَ} أي المنافقون {حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ} أي جنده، {أَلاَ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ}، أي المغبونون بذهاب الدنيا والآخرة {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ فِى ٱلأَذَلِّينَ}، أي إن الذين يخالفون الله ورسوله في الدين أولئك في جملة الكفار الخلص أو مع الأسفلين في النار وهم المنافقون. {كَتَبَ ٱللَّهُ} أي أثبت الله في اللوح المحفوظ وقال: {لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى} محمد عليه الصلاة والسلام بالحجة والسيف على فارس والروم واليهود والمنافقين، {إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ} على نصر أنبيائه، {عَزِيزٌ} بنقمة أعدائه لا يغلب عليه في مراده.

قال مقاتل: إن المسلمين قالوا: إنا لنرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم. قال عبد الله بن أبي سلول لهم: أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتموهم، فيكون لكم فتح فارس والروم كلاً والله أنهم أكثر جمعاً وعدة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، ثم نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة رجل من أهل اليمن الذي كتب كتاباً إلى أهل مكة بسر النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه أخبر أهل مكة بمسير النبي إليهم لما أراد فتح مكة وكان هو بدرياً. قال الله تعالى: {لاَّ تَجِدُ} يا أشرف الخلق {قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي يناصحون من خالف الله ورسوله في الدين بإرادة الخير لهم ديناً ودنياً مع كفرهم، ولا منع فيما عدا ذلك، لأن الأمة أجمعت على جواز مخالفتهم ومعاملتهم. والمعنى: لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله، فإن من أحب أحداً امتنع أن يحب مع ذلك عدوه، {وَلَوْ كَانُوۤاْ} أي من خالف الله ورسوله {ءَابَآءَهُمْ} أي آباء

المتحابين {أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} أي جماعتهم من قوم شتى.

قال سعيد: نزلت هذه الآية في شأن أبي عبيدة حين قتل أباه يوم بدر. وعن عمر بن الخطاب قال: لو كان أبو عبيد حياً لاستخلفته.

روى نطيس عن ابن عباس وروى غيره عن جماعة أن هذه الآية نزلت في جماعة من الصحابة، فإن عبيدة بن جراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم بدر، وعمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر وأبا بكر دعا ابنه للبراز يوم بدر، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقعود، وقال: متعتا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصرة؟

وروي أنه صك أباه أبا قحافة صكة أسقطت أسنانه حين سمعه يسب النبي صلى الله عليه وسلم، ومصعب بن عمير قتل أخاه أبا عزيز عبيد بن عمير يوم أحد، ومحمد بن مسلمة الأنصاري قتل أخاه من الرضاع كعب بن الأشرف اليهودي رأس بني النضير وعلياً وحمزة وعبيدة بن الحارث قتلوا يوم بدر بني عمهم، عتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة وقد أخبر الله تعالى: إن هؤلاء لم يوادوا أقاربهم وعشائرهم غضباً لله تعالى ولدينه، {أُوْلَٰٓئِكَ} أي الذين لا يوادون الكفار {كَتَبَ} أي أثبت الله {فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ}، وشرح الله صدورهم بالإلطاف.

وروي المفضل عن عاصم كتب على البناء للمفعول {فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ} أي قواهم بنور القلب من عند الله تعالى. وقيل: بنصر من الله على عدوهم، وسمى تلك النصرة روحاً، لأن بها يحيا أمرهم كما قاله ابن عباس والحسن، وقال السدي. الضمير في قوله: {مِّنْهُ} عائد إلى الإيمان. والمعنى: أعانهم بروح من الإيمان وسمى روحاً لحياة القلوب به {وَيُدْخِلُهُمْ} في الآخرة {جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا} أبد الآبدين {رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ} ونعمة الرضوان هي أعظم النعم وأجل المراتب، {أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ} أي جنده {أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ}، أي الفائزون بسعادة الدارين الناجون من العذاب والسخط.

سورة الحشر

وتسمى سورة النضير، مدنية، أربع وعشرون آية، وسبعمائة وخمس وأربعون كلمة، وألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} نزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: {وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} في بني النضير، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما غزا بدراً وظهر على المشركين قالوا: هو النبي المنعوت في التوارة بالنصر، فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا ونكثوا العهد فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة وحالفوا أبا سفيان وأصحابه أربعين رجلاً عند الكعبة على قتاله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع كعب وأصحابه إلى

المدينة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري بقتل كعب بن الأشرف فقتله غيلة، ثم صبحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتائب، وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم: «اخرجوا من المدينة». فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك، ثم تنادوا بالحرب، فبعث إليهم خفية عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وقالوا: لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم، ولننصرنكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم، فحصنوا الأزقة، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين ليلة، فلما قذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم، وللنبي ما بقي، فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات، إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حيي بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة فذلك قوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ} هم بنو النضير من اليهود {مِن دِيَٰرِهِمْ} أي مساكنهم بالمدينة {لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ} عند أول إخراج الجمع من مكان إلى مكان وهم أول من أخرجوا من جزيرة العرب إلى الشام لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام، {مَا ظَنَنتُمْ} أيها المسلمون {أَن يَخْرُجُوا۟} من ديارهم بهذا الذل لعزتهم وقوتهم {وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ} أي من عذاب الله، أي كانت حصونهم منيعة فظنوا أنها تمنعهم من رسول الله و «حصونهم» إما مبتدأ و «مانعتهم» خبر مقدم، والجملة خبر «أن» وإما فاعل لمانعتهم وهي خبر «أن». {فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟} أي فأتى أمر الله اليهود باذلاً لهم من حيث لم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف على يد أخيه غيلة. وقرىء «فآتاهم الله» بمد الهمزة، أي فأعطاهم الله الهلاك. وقيل: الضمير للمؤمنين، أي فآتاهم نصر الله من حيث لم يرجوا وهو إخراج بني النضير من قرية يقال لها: زهرة إلى الشام وكان بين زهرة والمدينة ميلان {وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ} أي أثبت في قلوبهم الخوف من محمد وأصحابه، وكانوا قبل ذلك لا يخافون {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي يهدمون بعض بيوتهم بأيديهم من داخل الحصون ليسدوا بالخشب والحجارة أفواه الأزقة، ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين، ولينقلوا معهم بعض آلاتها مما يقبل النقل ويهدم المؤمنون بعض بيوت بني النضير من خارج توسيعاً لمجال القتال، ونكاية لهم، ومنعاً لتحصنهم بها. وقرأ أبو عمرو وحده «يخرجون» بفتح الخاء وتشديد الراء، وقال: الأخراب ترك الموضع خراباً، والتخريب الهدم، وبنو النضير خربوا وما أخربوا. {يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ} أي فاتعظوا بحالهم ولا تعتمدوا على شيء غير الله تعالى كما اعتمد هؤلاء على حصونهم، وعلى قوتهم وعلى المنافقين فليس للزاهد أن يعتمد على زهده فإن زهده لا يكون أكثر من زهد بلعام، وليس للعالم أن يعتمد علمه. انظر إلى ابن الراوندي مع كثرة ممارسته كيف صار فلا ينبغي لأحد أن يعتمد إلا على فضل الله ورحمته،

{وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ} أي ولولا أن قضى الله على بني النضير الخروج عن أوطانهم على الوجه الفظيع {لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا}

بالقتل والسبي كما فعل بإخوانهم بني قريظة من اليهود، {وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ} وهذا استئناف غير متعلق بجواب لولا أي ولهم على كل حال سواء أجلوا أم لا عذاب النار في الآخرة، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} أي ذلك المذكور من العذابين بسبب أنهم خالفوا الله ورسوله في الدين، {وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} أي ومن يخالف الله يعاقبه الله في الدنيا والآخرة، فإن الله شديد العقاب.

وقرىء «ومن يشاقق الله» كما في الأنفال. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل ببني النضير وقد تحصنوا بحصونهم أمر أصحابه بقطع نخيلهم وإحراقها. قال بنو النضير: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها، فكان في أنفس المؤمنين شيء من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً واختلفوا في ذلك فقال بعضهم: لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: بل نغيظهم بقطعه، فأنزل الله تعالى قوله: {مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ} أي أيّ شيء قطعتم أيها المسلمون من نخلة {أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا} كما كانت {فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي فذاك القطع والترك بإباحة الله تعالى ليعز المؤمنين، {وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ} أي إنما جوز الله ذلك القطع ليسر المؤمنين ويزداد غيظ الكفار اليهود ويتضاعف تلهفهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعز أموالهم. وقرىء «قوماً» على أصلها. وقرىء أيضاً «قائماً» على أصوله ذهاباً إلى لفظ ما، {وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ} أي ما رده الله لرسوله من يهود بني النضير، فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دونكم {فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ}، أي لأنكم ما أجريتهم إلى تحصيل ذلك خيلاً ولا ركاباً {وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ} من أعدائهم، وقد سلط الله النبي صلى الله عليه وسلم على هؤلاء اليهود من غير أن تقاسوا أيها المسلمون شدائد الحروب فلا حق لكم في أموالهم، {وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} فيفعل ما يشاء، نزلت هذه الآية في بني النضير وقراهم، وليس للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب، وإنما كانوا في زهرة على ميلين من المدينة، فمشوا إليها مشياً ولم يركب إلا رسول الله، وكان راكب جمل فلما كانت المقاتلة قليلة أجراه الله تعالى مجرى ما لم يحصل فيه المقاتلة أصلاً، فخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك الأموال، ثم روى أنه صلى الله عليه وسلم قسَّمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة سماك بن خرشة وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة، وأعطى سعيد بن معاذ سيف بن أبي الحقيق. ومعنى الآية: أن الصحابة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم الفيء بينهم كما قسم الغنيمة بينهم فذكر الله الفرق بينهما، وهو أن الغنيمة ما اتبعتم أنفسكم في تحصيلها وأوجفتم الخيل والركاب والفيء ما ليس في تحصيله تعب، فكان الأمر فيه مفوضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يضعه حيث يشاء، {مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ} كقريظة والنضير، وفدك وخيبر، وعرينة، وينبع والصفراء، {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ} وهم بنو هاشم وبنو المطلب، {وَ ٱلْيَتَامَىٰ وَ ٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ}.

قيل: يصرف سهم الله إلى عمارة الكعبة والمساجد، ويصرف سهم رسول الله وفاته وهو أربعة أسهم إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار، وبناء القناطر يقدم الأهم فالأهم أو إلى المجاهدين المرصدين للقتال في الثغور، لأنهم قائمون مقام رسول الله في رباط الثغور، {كَى لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلاٌّغْنِيَآءِ مِنكُمْ} أي جعل الله الفيء لمن ذكر لأجل أن لا يكون الفىء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء.

وقرأ هشام «تكون» بالتأنيث على خلاف عنه «دولة» بالرفع، أي كيلا يقع دور في يد الأغنياء. وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي بفتح الدال فقيل: الضم والفتح بمعنى. وقيل: «الدولة» بالفتح من الملك بضم الميم، و «الدولة» بضم من الملك بكسر الميم، {وَمَآ ءَاتَٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ} فإنه واجب الطاعة، لأنه لا ينطق عن الهوى، وهذا يوجب أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى، وإن كانت الآية خاصة في الفيء، فجميع أوامره صلى الله عليه وسلم ونواهيه داخلة فيها {وَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} في مخالفته صلى الله عليه وسلم {إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} فيعاقب من يخالف أمره ونهيه {لِلْفُقَرَآءِ} بدل من لذي القربى، و «ما» عطف عليه كأنه قيل: أعني بأولئك الأربعة هؤلاء الفقراء، {الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ} حيث إن كفار مكة أحوجوهم إلى الخروج منها وكانوا مائة رجل، {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰناً} أي فخرجوا منها طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومرضاة في الآخرة {وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} بأنفسهم وأموالهم، فإن خروجهم من بين الكفار مهاجرين إلى المدينة نصرة، {أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ} في دينهم، لأنهم هجروا لذات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين.

وعن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وأقسم لكم من الغنائم وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم وأقسم الغنيمة بين الفقراء المهاجرين خاصة دونكم». فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ولا نشاركهم في الغنيمة فأثنى الله عليهم فقال: {وَ ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ} أي والذين هيئوا لدار الهجرة والإيمان وتمكنوا فيهما أشد تمكن من قبل مجيء المهاجرين إليهم، {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لمحبتهم الإيمان، {وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ} أي في قلوبهم {حَاجَةً} أي حزازة وحسداً {مِّمَّآ أُوتُواْ} أي مما أعطي المهاجرين من الفيء وغيره دونهم، {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، أي ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش، ولو كان فيهم فقر وحاجة إلى ما يقدمون به غيرهم، حتى إن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً منهم.

روي عن أبي هريرة أن رجلاً بات به ضيف ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته نوّمي الصبية، وأطفئي السراج، وقربي للضيف ما عندك فنزلت هذه الآية. {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ} أي ومن يوق بتوفيق الله

تعالى حرص نفسه على المال حتى يخالفها في حب المال وبغض الإنفاق، {فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} أي الظافرون بما أرادوا.

ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً أمر الله بإعطائه فقد وقي شح نفسه. وقرىء «يوق» بالتشديد، وشح بكسر الشين {وَ ٱلَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ} أي من بعد هجرة المهاجرين ومن بعد قوة إيمان الأنصار، {يَقُولُونَ} أي يدعون لهم: {رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا} ذنوبنا {وَلإِخْوَٰنِنَا} في الدين {ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلإِيمَٰنِ} وهو جميع من تقدمهم من المسلمين لا خصوص المهاجرين والأنصار، {وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ} أي حقداً.

وقرىء «غمراً». {لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ} أياً كانوا {رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} فينبغي للمؤمن أن يذكر السابقين بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية،

{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَٰفَقُواْ} وهم عبد الله بن أبّي، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد فإنهم كانوا من الأنصار، ولكنهم نافقوا في دينهم {يَقُولُونَ} في السر {لإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ} وهم اليهود من بني قريظة والنضير، فهم مشتركون في الكفر وفي عداوة محمد صلى الله عليه وسلم {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ} من المدينة {لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} ونذهبن في صحبتكم أينما ذهبتم، {وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ} أي في شأنكم {أَحَداً} يمنعنا من الخروج معكم {أَبَداً}، أي وإن طال الزمان. وقيل: لا نعين عليكم أحداً من أهل المدينة، {وَإِن قُوتِلْتُمْ} من أي مقاتل كان {لَنَنصُرَنَّكُمْ} على عدوكم {وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ} في تلك المقالات الثلاثة المؤكدة بالأيمان الفاجرة، {لَئِنْ أُخْرِجُواْ} أي اليهود من المدينة {لاَ يَخْرُجُونَ} أي المنافقون {مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ يَنصُرُونَهُمْ}، وكان الأمر كذلك، وفي هذا دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن حيث أخبر عما سيقع فوقع الأمر كما أخبر، {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلأَدْبَٰرَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ}، أي ولئن خرج المنافقون لقصد نصر اليهود لينهزمن من المنافقون، ثم يهلكهم الله ولا ينفعهم نصرة المنافقين {لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِّنَ ٱللَّهِ} أي أن خوف المنافقين واليهود في السر من المؤمنين أشد من خوفهم من الله الذي يظهرونه للمؤمنين، وكانوا يظهرون لهم خوفاً شديداً من الله، والمعنى: أنهم لا يقدرون على مقابلتكم، لأنكم أشد مرهوبية في صدورهم، وهم يظهرون خوفهم من الله، {ذَلِكَ} أي كون خوفهم من المخلوق أشد من خوفهم من الخالق، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} أي بسبب أنهم قوم لا يعلمون عظمة الله فيخشوه حق خشيته، {لاَ يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ}، أي لا يقدر اليهود والمنافقون على مقاتلتكم مجتمعين في موطن إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالخنادق والدروب، أو إلا إذا كان بينكم وبينهم حائط، وذلك بسبب أن الله ألقى في قلوبهم الرعب وأن نصرة الله معكم.

وقرأ ابن كثير وأبوعمرو «جدار» بكسر الجيم وفتح الدال بالإمالة في جدار كما هو قراءة أبي عمرو وبالصلة في بينهم بحيث يتولد منها واو كما هو قراءة ابن كثير والباقون «جدر» بضم الجيم والدال، {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أي قتالهم فيما بينهم شديد إذا قاتلوا قومهم {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً

وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ} أي تحسبهم في صورتهم مجتمعين على المحبة، متفقين على أمر واحد. والحال أن قلوبهم مختلفة، لأن كل أحد منهم على مذهب آخر وبينهم عداوة وشديدة، {ذَٰلِكَ} أي تشتت قلوبهم {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} أن تشتيت قلوبهم مما يوهن قواهم إذ لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا في العقائد والمقاصد، {كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ} أي صفة بني قريظة في نقض العهد كصفة الذين من قبلهم بسنتين، وهم بنو النضير ذاقوا عقوبة أمرهم من نقض العهد، {وَلَهُمْ} في الآخرة {عَذَابٌ أَلِيمٌكَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ}، أي ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال وخذلانهم كمثل الأبيض مع برصيصا العابد، فالأبيض هو صاحب الأنبياء والأولياء، وهو الذي تصدَّى للنبي صلى الله عليه وسلم وجاءه في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فدفعه جبريل إلى أقصى أرض الهند، {إِذْ قَالَ} أي الشيطان الذي يقال له: الأبيض {لِلإِنسَٰنِ} أي العابد الذي يقال له برصيصا { ٱكْفُرْ} بالله {فَلَمَّا كَفَرَ} بللّه خذله و {قَالَ إِنِّى بَرِىۤءٌ مِّنكَ}، أي ليس بيني وبينك محبة أصلاً. وقرىء «أنا بريء منك». روى عطاء وغيره عن ابن عباس قال: كان راهب يقال له: برصيصا تعبد في صومعة له سبعين سنة، لم يعص الله تعالى فيها طرفة عين وأن إبليس أعياه في أمره الحيل، فجمع ذات يوم مردة الشياطين، فقال الأبيض لإبليس أنا أكفيك أمره، فانطلق فتزيا بزي الرهبان، وحلق وسط رأسه، وأتى صومعة برصيصا، فناداه، فلم يجبه، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام مرة، ولا يفطر في كل عشرة أيام إلا مرة، فأقبل الأبيض يصلي في أصل صومعة برصيصا فلم يلتفت إليه برصيصا، أربعين يوماً، فلما رأى برصيصا شدة اجتهاد الأبيض في العبادة قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تأذن لي أن أرتفع إليك، فأذن له، فارتفع إليه في صومعته، فأقام حولاً يتعبد، فلا يفطر إلا في كل أربعين يوماً مرة، ولا ينفتل من صلاته إلا كذلك، فلما حال الحول، قال الأبيض لبرصيصا: إن عندي دعوات أعلمكها تدعو بهن فهن خير مما أنت فيه، يشفي الله تعالى بها المريض، ويعافي بها المبتلى والمجنون. قال برصيصا: إني أكره هذه المنزلة وإني أخاف أن يشغلني الناس عن عبادة ربي، فلم يزل به الأبيض حتى علَّمه الدعوات، ثم انطلق حتى أتى إبليس فقال: والله قد أهلكت الرجل، فانطلق الأبيض، فتعرض لرجل فجننه، ثم جاءه في صورة رجل مطبب فقال لأهله: إن لصاحبكم جنوناً أفأعالجه؟ قالوا: نعم، فقال: إني لا أقوى على جنيته ولكن سأرشدكم إلى من يدعو الله تعالى فيعافيه، انطلقوا إلى برصيصا فإن عنده الاسم الذي إذا دعا به أجيب، فانطلقوا به إليه، فسألوه الدعاء، فدعا له، فذهب عنه الشيطان، فكان الأبيض يفعل ذلك بالناس ويرشدهم إلى برصيصا، فيدعو لهم، فيعافون، ثم تعرض الأبيض لبنت ملك من ملوك بني إسرائيل وكان لها ثلاثة أخوة، وكان ملك بني إسرائيل عمهم حينئذ، ثم جاء الأبيض إليهم في صورة رجل مطبب فقال: أفأعالجها؟ قالوا: نعم، قال: إن الذي عرض لها مارد لا يطاق ولكن سأرشدكم إلى رجل تثقون به تتركونها عنده إذا جاءها شيطانها دعا لها حتى تعلموا أنها قد عوفيت فتأخذونها منه صحيحة قالوا:

ومن هـو؟ قـال: هـو برصيصا فـانطلقوا إليـه، فسـألوه ذلـك، فـأبى، فبنـوا صومعة ألصقوها بصومعة برصيصا ووضعوا تلك البنت في صومعتها وقالوا: يا برصيصا هذه أختنا أمانة عنـدك، ثـم انصـرفوا، فلمـا انفتـل برصيصـا مـن صلاته عاين تلك البنت وما هي عليه من الجمال فوقعت في قلبـه، فجاءهـا الشيطان، فخنقها، فكانت تكشف عـن نفسـها وتتعـرض لبرصيصـا، فجـاءه الشيطان وقال: ويحك، واقعها، فلم تجد مثلها، وستتوب بعد ذلك، فلم يزل الشيطان به حتى واقعها، فلـم يـزل علـى ذلـك حـتى حملـت البنـت وظهـر حملها، فقال له الشيطان: ويحـك يـا برصيصـا فهـل لـك أن تقتلهـا وتتـوب، فقتلها، فدفنها ليلاً جانب الجبل، فجاء الشيطان وقتئذ، فأخذ بطرف إزارهـا فبقي خارجاً من التراب، ثم رجع برصيصا إلى صومعته وأقبـل علـى صـلاته إذ جاء إخوتها الذين يتعهدونها، فلما لم يجدوها قالوا: يا برصيصا، مـا فعلـت أختنا؟ قال: قد جاء شيطانها فـذهب بهـا ولـم أطقـه، فصـدقوه وانصـرفوا، فلما أمسوا مكروبين جاء الشيطان إلى أكبرهم في منامه فقال: ويحك، إن برصيصا فعل بأختك كذا وكذا، وأنه دفنها في موضـع كـذا وكـذا، فقـال فـي نفسه: هذا حلم من عمل الشـيطان، فتـابع عليـه ثلاث ليـال، فلـم يكـترث، ففعل الشيطان بأوسطهم مثل ذلـك فقـال مثـل قـول أكـبرهم، ولـم يخـبر بذلك الحلم أحداً، ففعل بأصغرهم مثل ذلك فقال: لأخويه: والله لقد رأيــت كذا وكذا فقال الأوسط: أنا والله رأيت مثل ذلك وقال الأكبر: أنا والله رأيت مثله، فانطلقوا إلى برصيصا وقالوا له: ما فعلت بأختنـا؟ فقـال: أليـس قـد أعلمتكم بحالها فكأنكم قد اتهمتمـوني فقـالوا: واللـه لا نتهمـك، واسـتحيوا منه، وانصرفوا، فجاءهم الشيطان فقال: ويحكم، إنهـا مدفونـة فـي موضـع كذا وكذا، وإن طرف إزارها خارج من التراب، فانطلقوا، فرأوا أختهم علــى ما رأوا في النوم، فذهبوا إلى برصيصا ومعهم غلمانهم بالفوس والمساحي، فهدموا صومعة برصيصا، وأنزلوه منها، وكتفوه، ثم أتوا به إلى الملـك فـأقر على نفسه، فأمر الملك بقتله وصلبه على خشبة، فلمـا صـلب أتـاه الأبيـض فقـال: يـا برصيصـا أتعرفنـي؟ قـال: لا، قـال: أنـا صـاحبك الـذي علمتـك الدعوات، فاستجيب لك ،فلم يزل الأبيض يعيـره قـال برصيصـا لـه: فكيـف أصنع؟ قـال: تطيعنـي فـي خصـلة واحـدة حـتى أنجيـك ممـا أنـت فيـه مـن العذاب، وأخرجك من مكانك. قال: وما هي؟ قال تسجد لـي. قـال: أفعـل، فسجد له، فقال: يا برصيصا هذا الذي أردت منك، قد صـارت عاقبـة أمـرك إلى أن كفرت بربك إني بريء منك. {إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِيـنَ}. وقـرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «إني» بفتح الياء. {فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ} أي الشيطان والراهب {أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا} و «عاقبتهما» بالنصب خـبر «كـان» مقدم. وقرىء شاذاً بالرفع. وقرأ ابن مسعود «خالدان فيها» على أنه خــبر «أن» و «في النار» لغو. {وَذَٰلِكَ} أي الخلود في النـار {جَـزَآءُ ٱلظَّٰلِمِيـنَ} أي المشركين.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} في كل ما تأتون وما تذرون، {وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ} برة أو فاجرة {مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍ}، أي ما تريد أن تحصله ليـوم القيامـة فتفعله، {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} بأداء الواجبات وترك المعاصي، {إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيـرٌۢ بِمَـا تَعۡمَلُونَ} من الخير والشـر، فلا تعملـون عملاً إلا كـان بمـرأى منـه تعـالى،

ومسمع، فاستحيوا منه تعالى، {وَلاَ تَكُونُواْ} يا معشر المؤمنين {كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ} أي نسوا حق الله كالمنافقين واليهود، فإن المنافقين تركوا طاعة الله في السر، واليهود تركوا طاعة الله في السر والعلانية، {فَأَنسَٰهُمْ أَنفُسَهُمْ} أي فجعلهم الله ناسين حق أنفسهم حتى لم يعملوا لأنفسهم ما ينفعهم عنده تعالى، {أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ} أي الكاملون في الفسوق، أي الخروج عن دائرة الطاعة، {لاَ يَسْتَوِيۤ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ} الذين نسوا الله تعالى {وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ} الذين اتقوا الله تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة بوجه من الوجوه واحتج بهذه الآية أصحابنا على أن المسلم لا يقتل بالذمي {أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ} بكل مطلوب، الناجون عن كل مكروه. {لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَٰشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ} أي لو جعلنا في الجبل على قساوته عقلاً كما جعلنا العقل فيكم، ثم أنزلنا عليه هذا القرآن المنطوي على فنون القوارع لخشع وتشقق خشية من الله وخوفاً أن لا يؤدي حقه في تعظيم القرآن وأنتم أيها المعترفون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده، {وَتِلْكَ ٱلأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ} أي نبينها لهم في القرآن {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، أي لكي يتأملوا مواعظ القرآن فإنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادات لمواعظه ولرأيتها ذليلة متشققة من خشية الله. {هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} وحده {عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ}، أي عالم ما غاب عن العباد، وما شاهدوه.

وقال ابن عباس: عالم السر والعلانية. وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا. وقيل: عالم ما غاب عن الوجود وهو المعدوم وعالم الموجود، {هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} أي هو العاطف على العباد، البر والفاجر بالرزق لهم، المنعم على المؤمنين خاصة بالمغفرة ودخول الجنة. {هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} أي لا معبود بحق إلا هو وحده، {ٱلْمَلِكُ} أي المتصرف بالأمر في جميع خلقه، {ٱلْقُدُّوسُ} أي البليغ في النزاهة في الذات، والصفات، والأفعال، والأحكام، والأسماء.

قال الحسن: أي الذي كثرت بركاته. {ٱلسَّلَٰمُ} أي الذي لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل، {ٱلْمُؤْمِنُ} أي واهب الأمن، {ٱلْمُهَيْمِنُ} أي الحافظ لكل شيء، {ٱلْعَزِيزُ} أي الذي لا يوجد له نظير، أو الغالب {ٱلْجَبَّارُ} أي الملك العظيم كما قاله ابن عباس أو مصلح أحوال العباد، أو الذي يقهرهم على ما أراد، {ٱلْمُتَكَبِّرُ} بربوبيته كما قاله ابن عباس أو المتعظم عن كل سوء كما قاله قتادة أو الذي تعظم عن ظلم العباد {سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، أي تنزيهاً له تعالى عما يشركون به. {هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ} أي المقدر لما يوجده، فيرجع إلى تعلق الإرادة التنجيزي القديم، {ٱلْبَارِىءُ} أي المبرز للأعيان من العدم إلى الوجود، فيرجع لتأثير القدرة الحادث في خصوص الأعيان، {ٱلْمُصَوِّرُ} أي مصور الأشياء على هيئات مختلفة مما يريد تعالى، فالتصوير آخر، والتقدير أولاً، والبرء بينهما.

وقرأ علي بن أبي طالب والحسن بفتح الواو وبالنصب مفعول ل «البارىء». {لَهُ ٱلأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ} أي له تعالى الأسماء الدالة على معاني الصفات الحسنة، {يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي ينطق ما فيهما

بتنزهه تعالى عن جميع النقائص تنزهاً ظاهراً، {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} الجامع للكمالات كافة، فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم.

سورة الممتحنة

وتسمى سورة براءة والمبعثرة، والفاضحة. مدنية، ثلاث عشرة آية، وثلاثمائة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمسمائة وعشرة أحرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى} في الدين {وَعَدُوَّكُمْ} في القتل، وهم كفار مكة {أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَوَدَّةِ}، أي توصلون المودة بينكم وبينهم.
روي أن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة كتاباً: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يغزوكم، فخذوا حذركم، ثم أرسله مع سار مولاة أبي عمرو بن صيفي، فأتاها حاطب وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً، واستحملها ذلك الكتاب إلى أهل مكة، فخرجت سائرة، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث علياً، وعماراً، وطلحة، والزبير، والمقداد، وأبا مرثد وقال: انطلقوا حتى تألوا روضة خاخ موضع بينه وبين المدينة اثنا عشر ميلاً فإن فيها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها، واتركوها، فإن أبت فاضربوا عنقها فأدركوها ثمة، وسألوا عن ذلك فأنكرت وحلفت ما معها كتاب، فسل على سيفه وقال: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخرجته من عقاص شعرها، فخلوا سبيلها، فجاءوا بالكتاب إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فاستحضر رسول صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له: «هل تعرف هذا الكتاب؟»ه قال: نعم، قال «ما حملك على هذا؟» قال: إن لي بمكة أهلاً ومالاً، فأردت أن أتقرب منهم، وقد علمت أن الله تعالى ينزل بأسه عليهم وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، وأن الله ناصرك عليهم، فصدقه، وقبل عذره فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه شهد بدراً وما يدريك يا عمر لعل الله تعالى اطلع على أهل بدر» فقال لهم: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم فنزلت هذه الآية.
وروي أن سارة عاشت إلى خلافة عمر وأسلمت وحسن إسلامها، {وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ ٱلْحَقِّ} أي وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الدين الحق. وقرىء «لما جاءكم» أي كفروا لأجل ما جاءكم من الرسول والقرآن، أي جعلوا ما هو سبب الإيمان سبباً للكفر {يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّكُمْ} من مكة إلى المدينة، {أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ} وهذا تعليل للإخراج أن يخرجوكم لإيمانكم بالله {إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ} من مكة إلى المدينة {جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى} وهذا مرتبط بلا تتخذوا، أي لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِـ ٱلْمَوَدَّةِ}، أي بالنصيحة. وهذه الجملة بدل من «تلقون إليهم» بدل بعض لأن إلقاء المحبة يكون سراً وجهراً {وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ} أي والحال إني أعلم منكم بما

أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم، فـأي فائـدة لكـم فـي إسـرار النصيحة وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سـيان فـي علمـي؟ {وَمَـن يَفْعَلْـهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ} أي ومن يفعل إسرار النصـيحة للكفـار فقـد أخطأ طريق الصواب، هذا كله معاتبة لحاطب، وهذا يدل على فضله وصدق إيمانه، فـإن المعاتبـة لا تكـون إلا مـن محـب لحـبيب كمـا قـال القائـل مـن الوافر: إذا ذهب العتاد فليس ود ويبقى الود ما بقـي العتـاب {إِن يَثْقَفُـوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً} أي إن يغلب عليكم أهل مكة يظهروا ما في قلوبهم من غاية العداوة، {وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِٱلسُّوٓءِ} أي يمـدوا إليكـم أيديهم بالضرب والقتل وألسنتهم بالشتم والطعن {وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ}، أي وتمنوا كفركم بعد إيمانكم، فحينئذ لا ينفعكم إلقاء المودة إليهم،

{لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ} أي قراباتكم {وَلاَ أَوْلَـٰدُكُمْ} الذين تتقربون إلى المشـركين لأجلهـم، {يَـوْمَ ٱلْقِيَٰمَـةِ يَفْصِـلُ بَيْنَكُـمْ} والظـرف إن علـق ب «يفصل» فالوقف على «أولادكم» وقف بيان، أو وقف تام عند أبـي حـاتم، والوقــف علــى «بينكــم» وإن علــق ب «تنفعكــم» فــالوقف علــى «يــوم القيامة» وهو وقـف صـالح. وقـرأ ابـن عـامر «يفصـل» بضـم وفتـح الفـاء وتشديد الصاد مع فتحها، ونائب الفاعـل ظـرف مبنـي علـى الفتـح وحمـزة والكسـائي كـذلك، إلا أنهمـا يكسـران الصـاد، أي يفـرق اللـه بينكـم وبيـن أقاربكم وأولادكم، فيدخل أهل الإيمان الجنة وأهل الكفر النار، وعاصم بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد. والباقون وهم نافع وابن كـثير وأبـو عمـرو بضم الياء وسكون الفاء، وفتح الصاد.

وروي أن ابن كثير قرأ أيضاً بالبناء للمفعول كعاصم. وقرىء «نفصل» و «نفصل» بالنون {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} فيجازيكم عليه، ولم يقل تعالى خبير مع أنه أبلغ في العلم، لأن البصير أظهر من خبير في العلم، لأنه تعـالى يجعل عملهم كالمحسوس بحس البصر، {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ} أي قدوة حسنة {فِيۤ إِبْرَٰهِيمَ}، أي في جميع أحواله مـن قـول وفعـل {وَ ٱلَّـذِينَ مَعَهُ} من أصحابه المؤمنين.

وقرأ عاصم «أسوة» بضم الهمزة في الموضعين. والباقون بكسرها، {إِذْ قَـالُواْ} بـدل اشـتمال مـن «إبراهيـم والـذين معـه»، {لِقَـوْمِهِمْ} أي لقرابتهم الكفار، مع أنهم أكثر من عدوكم وأقوى وقد كان من آمن بإبراهيم أقل منكم وأضعف: {إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُـدُونَ مِـن دُونِ ٱللَّـهِ} أي إنـا متبرئون من قرابتكم إيانا ومن معبودكم من الأوثان {كَفَرْنَا بِكُمْ} أي أنكرنا دينكم فلا نعتد بشأنكم وبآلهتكم، {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ} أي ظهـر بيننـا وبينكم العـداوة، وهـي المباينـة فـي الأفعـال، {وَ ٱلْبَغْضَـآءُ} وهـي المباينـة بـالقلوب {أَبَـداً} أي علـى الـدوام، {حَتَّـىٰ تُؤْمِنُـواْ بِـٱللَّهِ وَحْـدَهُ}، وتـتركوا الشـرك، فتنقلـب العـداوة حينئـذ ولايـة، والبغضـاء محبـة، أمـر اللـه تعـالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتـدوا بسـيدنا إبراهيـم ومـن معه من الأنبياء والأولياء، {إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَـكَ} أي فليـس لكم الاقتداء بإبراهيم في ذلك، لأنه لما استغفر لأبيـه لأجـل موعـدة وعـدها إياها، لأنه ظن أنه أسلم، فلما م ات علـى الكفـر تـبرأ منه وأنتـم لا تظنون إسلام الكفار الذين اتخذتموهم أولياء، {وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَـيْءٍ}،

وهذا حال من فاعل «لأستغفرن»، أي لأستغفرن لك والحال أني لا أدفع عنك شيئاً من عذاب الله إن أشركت به، أي وما علي إلا بذل الوسع في الاستغفار فوعده الاستغفار، رجاء الإسلام.

وقال ابن عباس: كان من دعاء إبراهيم وأصحابه: {رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} أي في جميع أمورنا {وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا} أي رجعنا بالتوبة عن المعصية وأقبلنا إلى طاعتك {وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ} إذ المصير ليس إلا إلى حضرتك، {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي مفتونين بهم.

قال ابن عباس: لا تسلط علينا أعداءنا فيظنوا أنهم على الحق. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك، {وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} أي أنت الذي تغلب في ملكك الحكيم في صنعك،

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ} يا أمة محمد {فِيهِمْ} أي في إبراهيم والذين معه {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}.

قال ابن عباس: كانوا يبغضون من خالف الله ويحبون من أحب الله، وهذا هو الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه، {لِّمَن كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ} أي لمن يخاف الله، ويخاف عذاب الآخرة وقوله: {لِمَنْ} إلخ بدل من «لكم» بدل بعض من كل، {وَمَن يَتَوَلَّ} أي يعرض عن الائتساء بهم ويمل إلى مودة الكفار، {فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ} عنه وعن سائر خلقه، {ٱلْحَمِيدُ} أي المحمود في فعاله.

قال مقاتل: لما أمر الله تعالى المؤمنين بعداوة الكفار شددوا في عداوة آبائهم وأبنائهم، وجميع أقاربهم، فأنزل الله تعالى قوله تعالى: {عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم} أي من كفار مكة {مَّوَدَّةً} أي صلة بمخالطتهم مع أهل الإسلام، {وَٱللَّهُ قَدِيرٌ} أي مبالغ في القدرة فيقدر على تسهيل أسباب المودة، {وَٱللَّهُ قَدِيرٌ} بهم إذا تابوا وأسلموا، ورجعوا إلى حضرة الله تعالى، فتزوج النبي صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة أم حبيبة بنت أبي سفيان فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة، وكانت هي قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبيد الله بن حجش إلى الحبشة، فتنصَّر وراودها على النصرانية، فأبت، وصبرت على دينها، ومات زوجها، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي، فخطبها عليه، وساق عنه إليها أربعمائة دينار، وبلغ ذلك أباها فقال: ذلك الفحل لا يقرع أنفه. والمراد بقوله تعالى: {ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم} نفر من قريش آمنوا بعد فتح مكة منهم: أبو سفيان بن حرب، وأبو سفيان بن الحرث، والحرث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. {لاَّ يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ}، أي لأجل دينكم {وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ} أي تصلوهم وهو بدل من «الذين لم يقاتلوكم» {وَتُقْسِطُوۤاْ إِلَيْهِمْ} أي تفضوا إليهم بالصلة وغيرها، {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ} أي أهل البر والتواصل عن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية نزلت في أسماء بنت أبي بكر، فإن أمها فتيلة بنت عبد العزى، وهي مشركة قدمت عليها بهدايا، فلم تقبلها، ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت هذه الآية فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تدخلها وتكرمها وتحسن إليها.

وقيل: نزلت في خزاعة قوم هلال بن عويمر وخزيمة، وبني مدلج، فإنهم صالحوا النبي قبل عام الحديبية على أن لا يقاتلوه، ولا يخرجوه من مكة ولا يعينوا أحداً على إخراجه. وقيل: نزلت في قوم من بني هاشم أخرجوا يوم بدر كرهاً، وهذه الآية تدل على جواز الإحسان بين المشركين والمسلمين وإن كانت المناصرة منقطعة، {إِنَّمَا يَنْهَٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ} أي لأجل دينكم، {وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ} وهم عتاة أهل مكة، {وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ} أي عاونوا عليه من سائر أهل مكة، {أَن تَوَلَّوْهُمْ} أي أن تناصروهم. هذا بدل اشتمال من «الذين قاتلوكم» {وَمَن يَتَوَلَّهُمْ} أي ومن يحبهم ويناصرهم {فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} لأنفسهم بأقبالها للعذاب لوضعهم المحبة في موضع العداوة.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ} أي المقرات بالله {مُهَٰجِرَٰتٍ} من مكة من بين الكفار، {فَٱمْتَحِنُوهُنَّ} أي فاختبروهن بما يغلب على ظنكم بالتحليف، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة: «بالله الذي لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج بالله، ما خرجت رغبة من أرض إلى أرض، بالله ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله». {ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ} أي بحقيقة إيمانهن فإن ذلك مما تفرد الله بعلمه {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ}، أي فإن ظننتموهن بعد الامتحان مؤمنات بالعلائم فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين، {لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ} أي ليست المؤمنات حلاً لأزواجهن الكفار، وهذا بيان لزوال النكاح الأول، {وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} أي وليس الكفار حلاً للمؤمنات. وهذا بيان لامتناع النكاح الجديد {وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ} أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، فإن المهر في نظير أصل العشرة ودوامها، وقد فوتها المهاجرة فلا يجمع على الرجل خسارتان: الزوجية والمالية. وذلك أن الصلح عام الحديبية كان على أن من جاءكم من أهل مكة يرد إليهم ومن أتى مكة منكم لم يرد إليكم، وكتبوا بذلك العهد كتاباً وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية، مسلمة، والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية، فأقبل زوجها مسافر المخزومي فقال: يا محمد، اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا شرطاً أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طية الكتاب لم تجف، فنزلت هذه الآية لبيان أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء، فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، ثم تزوجها عمر رضي الله عنه وأخرج الطبراني عن عبد الله أن هذه الآية نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. وعن الزهري: كانت هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها: عمارة والوليد، فحبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد أخويها. وأخرج بن أبي حاتم عن يزيد بن أبي حبيب أنها نزلت في أمية بنت بشر امرأة أبي حسان ابن الدحداحة. وعن مقاتل: أنها نزلت في سعيدة امرأة صيفي بن الواهب. {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} يا معشر المؤمنين {أَن تَنكِحُوهُنَّ} بعد الاستبراء {إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} أي إذا التزمتم مهورهن، فالمهر المدفوع للكفار لا يقوم مقام المهر الذي يجب على المسلم، إذا تزوجهن إذ المهر أجر البضع.

قال ابن عباس: أيما امرأة أسلمت وزوجها كافر فقد انقطع ما بينها وبين زوجها من عصمة ولا عدة عليها من زوجها الكافر وجاز لها أن تتزوج إذا استبرأت، {وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ} أي لا تأخذوا بعقود الكافرات غير أهل الكتاب.

قال ابن عباس: أيما امرأة كفرت بالله فقد انقطع ما بينها وبين زوجها المؤمن من العصمة.

وقرىء في السبعة «تمسكوا» بضم التاء وسكون الميم وبفتح الميم وتشديد السين. وقرىء «تمسكوا» بفتح التاء والميم وتشديد السين، {وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ} أي اطلبوا أيها المؤمنون من أهل مكة ما انفقتم على أزواجكم من مهورهن إن دخلن في دينهم، {وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ} أي وليطلبوا منكم ما أنفقوا على أزواجهم من المهور إن دخلن في دينكم {ذَلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

روي أنه لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون مهور المؤمنات المهاجرات إلى أزواجهن المشركين وأبى المشركون أن يؤدوا شيئاً من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين، فنزل قوله تعالى: {وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَٰقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُمْ مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ} أي وإن انفلت منكم أحد من أزواجكم، ورجع إلى الكفار الذين ليس بينكم وبينهم عهد، فغنمتم من العدو، فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم إلى الكفار من الغنيمة قبل الخمس مثل ما أنفقوا عليهن من مهر المهاجرة التي تزوجتموها، ولا تعطوه زوجها الكافر، {وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}، وجميع من ارتدت من نساء المؤمنين ست نسوة: أخت أم سلمة فاطمة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت جرول وهما تحت عمر بن الخطاب وأم الحكم بنت أبي سفيان، كانت تحت عباد بن شداد العمري، وبروع بنت عقبة، كانت تحت سمانس بن عثمان من بني مخزوم، وعبدة بنت عبد العزى، كانت تحت عمرو بن عبدود، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هاشم بن العاص، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهر نسائهم من الغنيمة. {يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ} أي نساء أهل مكة بعد فتح مكة {يُبَايِعْنَكَ} أي قاصدات المشارطة {عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْئاً} من الإشراك، {وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ}.

وقرىء «ولا يقتلن» بتشديد التاء، {وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ}، كانت المرأة تلتقط المولود من الزنا فتقول لزوجها: هو ولدي منك كني عن هذا بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها، لأن بطنها الذي تحمله فيه بين يديها، ومخرجه بين رجليها، {وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ} أي فيما تأمرهن به من معروف، وهو ما عرف حسنه من جهة الشرع. وهذا تنبيه على نفي جواز طاعة مخلوق في معصية الخالق، وذلك كترك النوح وجز الشعر، ونتفه، وحلق الرأس، وخمش الوجه، وشق الجيوب، وتمزيق الثياب، وأن لا يخلون مع رجل غير محرم وأن لا يسافرن مع غير ذي محرم، {فَبَايِعْهُنَّ} أي فشارطهن على ذلك، {وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ} فيما سلف منهن في الجاهلية {إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، أي مبالغ في المغفرة والرحمة.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال يوم فتح مكة جلس على الصفا، ومعه عمر أسفل منه، فجعل يبايع النساء، وكانت جملتهن إذ ذاك أربعمائة وسبعاً وخمسين امرأة، ولم يصافح في البيعة امرأة، وإنما بايعهن وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء، فغمسن يده فيه فغمس أيديهن فيه وكانت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنقبة، متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة يوم أحد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً» فرفعت هند رأسها وقالت: لقد عبدنا الأصنام وأنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا تسرقن». قالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هناة فما أدري أتحل لي أم لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر، فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها: «وإنك لهند بنت عتبة» قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك، فلما قال: «ولا تزنين»، فقالت: أوتزني الحرة؟ فلما قال: «ولا تقتلن أولادكن». قالت: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وكان ابنها حنظلة قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قال: «ولا تأتين ببهتان» إلخ قالت: والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ولما قال: «ولا تعصينني في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء، فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَوَلَّوْاْ قَوْماً غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ} أي لا تحبوا اليهود فإنهم قوم غضب الله عليهم.

روي أن جمعاً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم من إصابة ثمارهم، فنهوا عن ذلك بهذه الآية، {قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلآخِرَةِ} أي قد حرموا من ثواب الآخرة {كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّـٰرُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ} أي كما حرم من ذلك الذين ماتوا منهم.

وقال أبو إسحاق: يئس اليهود الذين عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم كما يئس الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث من موتاهم.

سورة الصف

مدنية، أربع عشرة آية، ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وتسعمائة وستة وعشرون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} أي شهد له تعالى بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات السنية جميع ما في السموات والأرض، {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ} أي الذي يغلب على غيره، {ٱلْحَكِيمُ} أي الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها. {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ}.

روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فلما نزل الجهاد كرهوه، فنزلت هذه الآية، أي لم تعدون ما لا توفون. وقيل: إنها نزلت فمين يتمدح كاذباً حيث كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وهذا أي لم تتكلمون بما لا تعملون. {كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ}.

قال الزجاج: أي كبر قولكم ما لا تفعلون بغضاً عند الله، {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ}، أي في طاعته تعالى {صَفّاً} في القتال.

قرأ زيد بن علي «يقاتلون» بفتح التاء. وقرىء «يقتلون»، أي يصفون وصفاً حال من فاعل «يقاتلون»، أي صافين أنفسهم أو مصفوفين {كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ} أي مشبهين ببنيان ألصق بعضه على بعض حتى صار شيئاً واحداً، {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ} أي واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين فلم يمتثلوا بأمره، {يٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى} أي بالمخالفة فيما أمرتكم به، {وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ} لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة، وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والمسارعة إلى الطاعة، {فَلَمَّا زَاغُوۤاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ} أي لما مالوا عن الحق وكذبوا موسى زاد الله زيغ قلوبهم حتى صرفها عن قبول الحق.

وقال مقاتل: أي لما عدلوا عن الحق بأبدانهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء ما عملوا، {وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ}، أي لا يهدي من سبق في علمه تعالى أنه خارج عن منهاج الحق مصر على الغواية، {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يٰبَنِى إِسْرَٰءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ}، أي مصدقاً لما قبلي {مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ}، ومن كتب الله ومن أنبيائه جميعاً {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ}.

قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وشعبة بفتح الياء على الأصل وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين. والباقون بالسكون وهو حذف الياء من اللفظ لالتقاء الساكنين، وهما الياء والسين كما قاله المبرد وأبو علي، {فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي فلما جاء عيسى بني إسرائيل بالمعجزات الظاهرة قالوا: هذا المأتي به سحر بيِّن وقرأ حمزة والكسائي «ساحر» بفتح السين مع الألف، ويقال: فلما جاءهم أحمد بالتي تبين أن الذي أتى به عند الله قالوا: هذا الآتي بالبينات ساحر بين،

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلإِسْلاَمِ} أي أيّ الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله من نسبة الولد إليه ووصف أنبيائه بالسحرة، {وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي لا يوفقهم الله للطاعة عقوبة لهم، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ} أي يريدون رد رسالة الرسول ليبطلوا دين الله بقولهم: إن الرسول ساحر، وليبطلوا كتاب الله بقولهم: إنه سحر، {وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ} بالإضافة وتركها،

أي والله مبلغ نوره إلى غايته بنشره في الآفاق، {وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ} أي ولو كره المشركون واليهود والنصارى إتمام النور.

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم أمره، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، واتصل الوحي بعدها {هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ}. وقرىء «نبيه» أي محمداً صلى الله عليه وسلم {بِٱلْهُدَىٰ} أي بالقرآن، {وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ} أي ليعليه على جميع الأديان المخالفة له {وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ} إعلاءه عليها. {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} وهي التجارة بين أهل الإيمان وحضرة الله تعالى.

وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الجيم. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في عثمان بن مظعون، وذلك أنه قال لرسول الله: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت، واختصيت، وحرمت اللحم، ولا أنام الليل أبداً، ولا أفطر نهاراً أبداً فقال صلى الله عليه وسلم: «إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية في الإسلام، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ومن سنتي أنام، وأقوم، وأفطر، وأصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني». فقال عثمان: والله لوددت يا رسول الله أن أعلم أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها، فنزلت: {تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ} وهذا استئناف كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال تعالى: تؤمنون أي تدومون على الإيمان، {وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي في طاعته {بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} أي بنفقة أموالكم وبخروج أنفسكم. والجهاد بعد هذين الوجهين ثلاثة: جهاد فيما بينه وبين نفسه وهو قهر النفس ومنعها عن اللذات والشهوات، وجهاد فيما بينه وبين الخلق، وهو أن يدع الطمع منهم، ويشفق عليهم، ويرحمهم. وجهاد فيما بينه وبين الدنيا، وهو أن يتخذها زاداً لمعاده، فيكون الجهاد على خمسة أوجه. وقرىء «آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا». وقرىء «تؤمنوا وتجاهدوا» على إضمار لام الأمر {ذَٰلِكُمْ} أي الذي أمرتم به من الإيمان والجهاد {خَيْرٌ لَّكُمْ} من أن تتبعوا أهواءكم {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، أي إن كنتم تنتفعون بما علمتم فهو خير لكم، {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}. وهذا جواب قوله: {تُؤْمِنُونَ} إلخ لما فيه من معنى الأمر وهو بمنزلة الثمن الذين يدفعه المشتري، وقوله: {يَغْفِرْ لَكُمْ} إلخ بمنزلة المبيع الذي يأخذه المشتري من البائع في مقابلة الثمن المدفوع له، {وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ} وهي قصبة الجنان والمساكن الطيبة، قصر من لؤلؤة في الجنة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء، في كل بيت سبعون سريراً في كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة، فيعطي الله تعالى المؤمن من القوة في

غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله. {ذَٰلِكَ} أي الجزاء الذي هو المغفرة وإدخال الجنات {ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ}، أي الذي لا فوز وراءه.

{وَأُخْرَىٰ} وهو إما مرفوع أي ولكم تجارة أخرى في العاجل مع ثواب الآجل، أو منصوب بفعل مضمر إما من نوع الاشتغال أي وتحبون خصلة أخرى في الدنيا مع ثواب الآخرة، أو من نوع معطوف على الجوابين، أي ويعطكم نعمة أخرى، أو مخفوض عطفاً على تجارة، {تُحِبُّونَهَا} أي تشتهون أن تكون لكم {نَصْرٌ مِّن ٱللَّهِ} بمحمد على كفار قريش، {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} أي عاجل وهو فتح مكة. وقرىء «نصراً من الله وفتحاً قريباً». وقوله: {نَصْرٌ مِّن ٱللَّهِ} إلخ مفسر لأخرى وهو ربح للتجارة {وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} عطف على «تؤمنون»، لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم، وبشر المؤمنين يا رسول الله بذلك. {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوۤاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ}. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «أنصاراً» منوناً و«لله» جاراً ومجروراً. والباقون «أنصار الله» مضافاً للجلالة. وقرأ ابن مسعود «كونوا أنتم أنصار الله». {كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِيۤ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ} والتشبيه باعتبار المعنى، أي كونوا أنصار دين الله كما كان الحواريون أنصاره حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟ أي من أعواني مع الله على أعدائه، أو المعنى: قل لهم كونوا أنصار دين الله كما قال عيسى لأصفيائه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً {فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِيۤ إِسْرَٰءِيلَ} بعيسى ابن مريم {وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ} وهم الذين أضلهم بولس، أي لما رفع عيسى إلى السماء تفرق قومه ثلاث فرق: فرقة قالت كان عيسى الله فارتفع. وفرقة قالت: كان ابن الله فرفعه إليه. وفرقة قالت: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه. فاقتتلوا وظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم، فظهرت الفرقة المؤمنة على الفرقة الكافرة، فذلك قوله تعالى: {فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ} أي فأعنا الذين لم يخالفوا دين عيسى على الذين خالفوه، {فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ} أي فصاروا غالبين على أهل الأديان بالحجة.

سورة الجمعة

مدنية، إحدى عشرة آية، ومائة وثمانون كلمة، وسبعمائة وثمانية وأربعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يُسَبِّحُ لِلَّهِ} أي يذكر الله بالتنزيه {مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} أي ما في جهة العلو والسفل من الخلق، {ٱلْمَلِكِ} فكلهم تحت تصرفه وفي قبضة قدرته، {ٱلْقُدُّوسِ} أي المنزه عما يخطر ببال أوليائه كما نقل عن الغزالي وقيل: أي المبارك أو الطاهر بلا ولد ولا شريك، {ٱلْعَزِيزِ} أي الغالب في ملكه بالنقمة لمن لا يؤمن به {ٱلْحَكِيمِ} أي الذي يضع الأشياء مواضعها وقد قرئت هذه الصفات الأربع بالرفع على المدح. {هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ} أي هو الذي

أرسل إلى العرب رسولاً من جملتهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فهو من جنسهم.

قال ابن عباس: المراد بالأميين الذين ليس لهم كتاب ولا نبي بعث فيهم. {يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ} التي تبين رسالته، وتظهر نبوته مع كونه أمياً مثلهم، لم يعتد منه قراءة، ولا تعلم، وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتي به من الوحي، وتكون حاله مشابهةً لحال أمته الذين بعث فيهم، {وَيُزَكِّيهِمْ} أي يطهرهم من خبث الشرك وخبث الأقوال والأفعال، {وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} أي آيات القرآن، {وَ ٱلْحِكْمَةَ} أي وجه التمسك بها.

وقيل: الكتاب: هو الآيات نصاً، والحكمة: ما أودع فيها من المعاني. {وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي والحال أنهم كانوا من قبل مجيء محمد إليهم بالقرآن لفي ضلال ظاهر، لأنهم كانوا عبدة الأصنام. {وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ} «وآخرين» معطوف على الأميين، ولما يلحقوا الآخرين، أي وبعثه إلى غير العرب من أي طائفة كانت، لم يلحقوا بالعرب الأول وهم كل من دخل في الإسلام بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المنصوب في «ويعلمهم» أي ويعلم آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم وهم كل من يعلم شريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان، فرسول الله معلمهم بالقوة، أي في المعنى والحكم لأنه أصل الخير والفضل، {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} حيث جعل في كل واحد من البشر أثر الفقر إليه، وجعل في كل مخلوق ما يشهد بوحدانيته، {ذَٰلِكَ} أي تفضيل رسول الله على غيره وإلحاق أبناء العجم الذين آمنوا وشاهدوا الرسول بقريش في درجة الفضل، {فَضْلُ ٱللَّهِ} وهو ما لم يكن مستحقاً {يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ}، وهم رسول الله والأميون والآخرون {وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} على جميع خلقه في الدنيا بتعليم الكتاب والحكمة، وفي الآخرة بتفخيم الجزاء على الأعمال {مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً}، أي صفة الذين أمروا بأن يعملوا بما في التوراة، ثم لم يعملوا بما أمروا فيها كصفة الحمار يحمل كتباً كباراً في عدم انتفاعه بها.

وقال أهل المعاني: هذا المثل مثل من يفهم معاني القرآن، ولم يعمل به، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه. {بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأايَٰتِ ٱللَّهِ} أي بئس صفة القوم الذين كذبوا بالتوراة حين تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، {وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} لأنفسهم بتكذيب الأنبياء.

{قُلْ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوۤاْ} أي الذين تهودوا وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، {إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ} أي إن قلتم أنكم أحباء لله من دون محمد وأصحابه فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً من دار البلية إلى دار الكرامة التي أعدها الله لأحبابه. وقوله تعالى: {فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ} جواب الشرط، والعامة بضم الواو.

وقرأ ابن السميقيع وابن يعمر وابن أبي إسحاق بكسرها. وقرأ ابن السميقيع أيضاً بفتحها للتخفيف، {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في زعمكم فتمنوا

الموت فإن من أيقن بأنه من أهل الجنة أحب أن يتخلص إليها وطريقها الموت، {وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي ويأبون التمني للموت بسبب ما عملوا من الكفر وتحريف الآيات الموجب لدخول النار، {وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ} أي بظلم الظالمين من تحريف الآيات وعنادهم لها، {قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَٰقِيكُمْ} أي إن الموت الذي تخافون من أن تتمنوه بلسانكم بسبب ما قدمتموه تحريف الآيات وغيره ملاقيكم ألبتة، والفاء في فإنه لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف.

وقرأ زيد بن علي أنه بدون فاء، وفي قراءة ابن مسعود «تفرون منه ملاقيكم» من غير «فإنه»، {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ} فالله تعالى عالم بما غيبتم عن الخلق من نعت محمد صلى الله عليه وسلم بما أسررتم في أنفسكم من تكذيبكم رسالته، {فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} إما عياناً مقروناً بلقائكم يوم القيامة، أو بالجزاء إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر، {يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوۤاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَٰوةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ} أي إذا نودي لوقت الصلاة من يوم الجمعة، فاذهبوا إلى الخطبة والصلاة، {وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ} أي اتركوا المعاملة، {ذَٰلِكُمْ} أي الذهاب إلى ذكر الله وترك المعاملة {خَيْرٌ لَّكُمْ} في الآخرة من التكسب في ذلك الوقت، {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي إن كنتم أهل العلم فأنتم ترون ذلك خيراً {فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَٰوةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ} أي إذا أديت الصلاة فاخرجوا من المسجد إن شئتم لإقامة مصالحكم، واطلبوا الرزق إن شئتم، فهذه رخصة بعد النهي بقوله تعالى: {وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ}.

وعن عراك بن مالك: أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد قال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين، {وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً} على كل حال بالقلب واللسان.

قال مجاهد: لا يكون من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكره قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وعن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أتيتم السوق فقولوا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير فإن من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة وحط عنه ألف ألف خطيئة ورفع له ألف ألف درجة». {لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي كي تفوزوا بخير الدارين، أي لما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به تقع شهرته، فجمعت الجماعات له، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيراً بالنعمة، وهي ما أنعم الله تعالى به عليهم من نعمة الوجود والعقل وغير ذلك مما لا يحصى، ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى إلى الاجتماع، {وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْواً} وهو الطبل، أي وإذا سمعوا صوتاً يدل على قدوم التجارة {ٱنفَضُّوۤاْ إِلَيْهَا} أي تفرقوا إلى التجارة. وقرىء «إليهما» {وَتَرَكُوكَ قَآئِماً} على المنبر تخطب.

قال مقاتل: إن دحية بن خليفة الكلبي قبل أن يسلم أقبل بتجارة من الشام، وكان معه من أنواع التجارة، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل

والصفق، وكان ذلك في يوم الجمعة، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب، فخرج الناس إليه وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا اثنا عشر رجلاً أو أقل، كثمانية أو أكثر كأربعين، فقال صلى الله عليه وسلم: «لولا هؤلاء لسومت لهم الحجارة». ونزلت هذه الآية وكان من الذين معه أبو بكر وعمر.

قال قتادة: فعلوا ذلك ثلاث مرات. وقال مقاتل بن حبان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الجمعة قبل الخطبة كالعيدين فلما خرج الناس لقدوم دحية بتجارة وظنوا أنه ليس في ترك الخطبة شيء من الإثم أنزل الله تعالى هذه الآية فقدَّم النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة وأخر الصلاة. {قُلْ} يا أشرف الخلق للمؤمنين زجراً عن العود لمثل ذلك الفعل: {مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ} أي ما عند الله من ثواب الثبات مع النبي صلى الله عليه وسلم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم. {وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ} أي أفضل المعطلين فمنه اطلبوا الرزق.

سورة المنافقون

مدنية، إحدى عشرة آية، ومائة وثمانون كلمة، وسبعمائة وستة وسبعون حرفاً

{}بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيـمِ. إِذَا جَ آءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ} أي إذا حضر مجلسك منافقو أهل المدينة عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، وجد بن قيس، وكانوا بني عم {قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ} وقولهم: «نشهد» نفي للنفاق عن أنفسهم.

روى زيد بن أرقم قال: كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول: لا تنفقوا علي من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسولاً إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوه، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله، فجلست في بيتي، فأنزل الله عز وجل: {إِذَا جَاءكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ} إلى قوله: {هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ} إلى قوله: {لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْهَا ٱلأَذَلَّ} فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: إن الله قد صدقك. {وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} سواء أشهد المنافقون بذلك أم لا. وهذه جملة معترضة بين قولهم: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ} وبين قوله تعالى: {وَٱللَّهُ يَشْهَدُ} إلخ لإماطة توهم توجه التكذيب إلى منطوق كلامهم {وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ} من إخبارهم عن أنفسهم أنهم يشهدون، فإن ضمير قلوبهم على غير تلك الشهادة { ٱتَّخَذُوۤاْ أَيْمَٰنَهُمْ} الكاذبة {جُنَّةً} أي سترة عما خافوا على أنفسهم من القتل.

وقرأ الحسن بكسر همزة «إيمانهم» {فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي أعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وقد منعوا الضعفة

عن إتباع رسول الله في السر وعن الإنفاق في سبيل الله، {إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} حيث آثروا الكفر على الإيمان وأظهروا خلاف ما أضمروا {ذَلِكَ} أي سوء أعمالهم، {بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ} في الظاهر وشابهوا المسلمين في نطق كلمة الشهادة وفي الأفعال، {ثُمَّ كَفَرُوا} أي ثم ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن حمير. وبقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات {فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ} لسوء أفعالهم وقصدهم الإعراض عن الحق. وقرىء على البناء للفاعل. وقرىء «فطبع الله» أي تركهم الله في أنفسهم الجاهلة وأهوائهم الباطلة {فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} شيئاً، فلا يميزون صواباً من خطأ ولا حقاً من باطل،

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَٰمُهُمْ} لضخامتها، ولصباحة وجوههم، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق، {وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم. وقرىء «يسمع» على البناء للمفعول {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ}، أي مشبهين بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والخير، {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} أي واقعة عليهم والوقف هنا تام فقوله: {عَلَيْهِمْ} مفعول ثانٍ.

قال مقاتل: إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة مثلاً ظنوا أنهم يرادون بذلك لما في قلوبهم من الرعب، وذلك لأنهم على وجل من أن يهتك الله أستارهم ويكشف أسرارهم، {هُمُ ٱلْعَدُوُّ} أي هم الكاملون في العداوة، {فَٱحْذَرْهُمْ} أن تأمنهم على السر ولا تلتفت إلى ظاهرهم فإن أعدى الأعادي العدو المكاشر الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي، {قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ} أي أهلكهم الله، فإن أصل المعنى أحلهم الله محل من قاتله عدو قاهر يهلكه، لأن الله تعالى قاهر لكل معاند فإذا قاتلهم أهلكهم، {أَنَّى يُؤْفَكُونَ} أي كيف يصرفون عن الحق إلى الكفر والضلال؟ {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ} إلى رسول الله وتوبوا من الكفر والنفاق، {يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ} أي حركوها إعراضاً وإباء.

روي أنه لما نزل القرآن في فضيحة المنافقين أتاهم عشائرهم من المؤمنين، وقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق، وأهلكتم أنفسكم، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك، فنزلت هذه الآية {وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ} أي يعرضون عن الاعتذار، {وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ} عن استغفار الرسول لهم، {سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} أي استغفارك لهم وعدمه سواء، والسبعة بهمزة قطع مفتوحة م ن غير مد ووصلها قوم على حذف حرف الاستفهام، لأن أم المعادلة تدل عليه. وقرىء شاذاً «أاستغفرت» بهمزة ثم ألف، {لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ} لرسوخهم في الكفر {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ} أي الذين سبق ذكرهم، وهم الكافرون والمنافقون والمستكبرون، {هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ} والقائل عبد الله بن أبي لأصحابه المؤمنين الأنصار في غزوة تبوك: {لاَ تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ} وهم فقراء المهاجرين، {حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ} أي لأجل أن يتفرقوا عنه. وقرىء «حتى ينفضوا» بضم الياء

وسكون النون، أي لأجل أن تفنى أزوادهم، {وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} أي مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، {وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ} أن الله يرزقهم وأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، {يَقُولُونَ} في تبوك: {لَئِن رَّجَعْنَآ} من غزوة بني المصطلق {إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ}.

قال المفسرون: اختلف أجير عمر وهو جهجاه بن سعيد مع أجير عبد الله بن أبي، وهو سنان الجهني في بعض الغزوات، فأسمع أجير عمر عبد الله بن أبي المكروه، واشتد عليه لسانه، فغضب عبد الله وعنده رهط من قومه فقال: أما والله لئن رجعنا من غزوتنا هذه إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وأراد عبد الله بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله والمؤمنين، ثم أقبل على قومه فقال: لو أمسكتم النفقة عن هؤلاء المهاجرين لأوشكوا أن يتحولوا عن دياركم وبلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فنزلت هذه الآية، وسبب غزوة بني المصطلق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني المصطلق وهم حي من هذيل يجتمعون لحربه، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار وهو أبو جويرية زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المر يسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فوقع القتال، فهزم الله بني المصطلق وكان سبيهم سبعمائة، فلما أخذ النبي جويرية من السبي لنفسه أعتقها وتزوجها فقال المسلمون: صار بنو المصطلق أصهار رسول الله فأطلقوا ما بأيديهم من السبي إكراماً لرسول الله، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: وما أعظم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جويرية ولقد أعتق بتزويج رسول الله لها مائة أهل بيت من بني المصطلق اه. وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ}أي القوة {وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} فعزة الله قهره لأعدائه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم {وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} أن الله معز أولياءه ومذل أعداءه، ولو علموه ما قالوا مقالتهم.

روي أن عبد الله بن أبي لما أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان مخلصاً وقال: لئن لم تقر لله ولرسوله بالعز لأضربن عنقك، فلما رأى منه الجد قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابنه: «جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً». {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلاَ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ} أي لا يشغلكم الاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج {وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ} أي ومن ألهاه ماله وولده عن طاعة الله تعالى {فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ} أي في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني، {وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُمْ} أي بعض ما أعطيناكم {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ} أي مقدمات الموت {فَيَقُولُ} عند تيقنه بحلول الموت: {رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ} أي هلا أمهلتني إلى أمد قصير بقدر ما أستدرك فيه ما فاتني {فَأَصَّدَّقَ} من

مالي بتشديد الصاد والدال. وقرأ أبي «فأتصدق» على الأصل. {وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي أكن من الحاجين.

عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل إلا سأل الله الرجعة عند الموت. وقرأ أبو عمرو «وأكون» بالنصب عطفاً على لفظ جواب التمني. والباقون «وأكن» بالجزم عطفاً على محله. وقرىء «وأكون» بالرفع «وأنا أكون». {وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً} أي عن الموت {إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} فمجاز لكم عليه. وقرأ شعبة بالياء التحتية.

سورة التغابن

مدنية. أو مكية، ثماني عشرة آية، ومائتان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} أي ينزهه تعالى جميع ما فيهما من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه تنزيهاً مستمراً، {لَهُ ٱلْمُلْكُ} فهو متصرف في ملكه، {وَلَهُ ٱلْحَمْدُ} على أهل السموات والأرض، {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ} من أمر الدنيا والآخرة {قَدِيرٌ}، لأن نسبة الكل إلى قدرته تعالى سواء، {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ}، أي فبعضكم مختار للكفر كاسب له {وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ}، أي وبعض منكم مختار للإيمان كاسب له.

وقال عطاء والزجاج: أي فمنكم جاحد بأنه تعالى خلقه وهو من أهل الطبائع والدهرية، ومنكم مصدق بأنه تعالى خلقه، والمعنى: أنه تعالى تفضل عليكم بأصل النعم التي هي الخلق فانظروا النظر الصحيح، وكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين فما فعلتم ذلك بل تفرقتم فرقاً، فمنكم كافر ومنكم مؤمن، {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} من الكفر والإيمان فيجازيكم على ذلك، {خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ بِٱلْحَقِّ} أي بالإرادة القديمة على وفق الحكمة {وَصَوَّرَكُمْ} في الأرحام {فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} فمن نظر في قد الإنسان ومناسبته بين أعضائه فقد علم أن صورته أحسن صورة، وقد وجد فيه القوى الدالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته دلالة مخصوصة لحسن هذه الصورة {وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ} أي المرجع {يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} من الأمور الكلية والجزئية والأحوال الجلية والخفية، {وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} أي ما تسرونه فيما بينكم وما تظهرونه من الأمور، {وَٱللَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} أي بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس. {أَلَمْ يَأْتِكُمْ} أيها الكفرة {نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ} أي من قبلكم، كقوم نوح ومن بعدهم {فَذَاقُواْ} من غير مهلة {وَبَالَ أَمْرِهِمْ} أي شدة أمرهم في الدنيا، {وَلَهُمْ} في الآخرة {عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَٰلِكَ} أي العذاب في الدنيا والآخرة {بِأَنَّهُ} أي الشأن {كَانَت} أي القصة {تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ} أي بالحجج الظاهرات، فأنكروا أن يكون الرسول بشراً ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً {فَقَالُوۤاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ} بالرسل، {وَتَوَلَّواْ} أي أعرضوا عن الإيمان، {وَّ ٱسْتَغْنَىٰ ٱللَّهُ} أي أظهر الله تعالى غناه عن إيمانهم وطاعتهم

حيث أهلكهم ولم يلجئهم إلى ذلـك {وَٱللَّـهُ غَنِـىٌّ} عـن عبـادتهم مـن الأزل {حَمِيدٌ}، أي مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده أحد {زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَـرُوٓاْ} من أهل مكة {أَن لَّن يُبْعَثُواْ} أي أنهم لن يبعثوا بعد موتهم أبـداً، {قُـلْ} يـا أشرف الخلق لهم: {بَلَىٰ} تبعثون {وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ} أي لتحاسبن ولتجزون على أعمالكم، {وَذَلِكَ} أي البعث والجـزاء {عَلَـى ٱللَّـهِ يَسِيرٌ} لثبوت قدرته التامة فلا يصرفه صارف، {فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ} أي إذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بـ الله ورسـوله محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم، {وَٱلنّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا} وهو القرآن، فإنه يهتدى به في الشـبهات كمـا يهتـدى بـ النور فـي الظلمـ ات، وذلـك لئلا ينـزل بـ ك مـا نـزل بالكفـار الماضـية مـ ن العقوبة، {وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} فمجاز لكم عليه

{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ} أي لأجل ما في يوم القيامة من الحساب والجزاء. وسمي بالجمع لأن اللّه تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين من أهـل السموات وأهل الأرض، و «يوم» ظرف ل «لتنبؤن». وقرىـء «نجمعكـم» بنون العظمـة {ذَلِـكَ يَـوْمُ ٱلتَّغَـابُنِ} أي يـوم ظهـور غبـن كـل كـافر بـترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، وفي الحديث «ما من عبـد يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو أسـاء ليـزداد شـكر، أو مـا مـن عبـد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة». {وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ} مع مـا جـاءت بـه الرسـل مـن الحشـر والنشـر والجنـة وغيـر ذلـك. {وَيَعْمَلْ صَٰلِحاً} إلى أن يموت فـي إيمـانه {يُكَفِّـرْ}، أي اللـه {عَنْـهُ سَـيِّئَٰتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـتٍ تَجْـرِى مِـن تَحْتِهَـا ٱلأَنْهَٰـرُ خَٰلِـدِينَ فِيهَـآ أَبَـداً ذَلِـكَ} أي تكفيـر السيئات وإدخال الجنات {ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} الذي لا فوز وراءه.

وقرأ نافع وابن عامر «نكفر عنه» و «ندخله» بالنون فيهما. {وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} بوحدانية الله وبقدرته {وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ} أي بالقرآن، {أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ} النـار {مَـآ أَصَـابَ} أحـداً {مِـن مُّصِـيبَةٍ} دينية أو دنيوية في بدن وأهل ومال، {إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي بتقـديره وإرادتـه و «من مصيبة» فاعل بزيادة من قيـل: وسـبب نـزول هـذه الآيـة أن الكتـاب قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله تعالى عن المصائب فـي الدنيا، {وَمَن يُؤْمِن بِـٱللَّهِ} بـأن يـرى المصـيبة مـن اللـه {يَهْـدِ قَلْبَـهُ} عنـد المصيبة للتسليم لأمر الله فيسترجع.

وقرىء «يهد قلبه» على البناء للمفعول ورفع «قلبه». وقرىء بنصبه على نهج سفه نفسه وقرىء «يهدأ» بالهمزة على وزن يقطـع ويخضـع، أي يسكن فيسلم لقضاء الله تعالى ويصبر على المصـيبة، {وَٱللَّـهُ بِكُـلِّ شَـىْءٍ عَلِيـمٌ} فيعلـم اطمئنـان القلـب عنـد المصـيبة، {وَأَطِيعُـواْ ٱللَّـهَ وَأَطِيعُـواْ ٱلرَّسُولَ} أي هونوا المصائب على أنفسكم، واتبعوا الأوامـر الصـادرة مـن الله تعالى ومن الرسول فيما دعاكم إليه، {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَـا عَلَـىٰ رَسُـولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ} أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ الظاهر، وقد فعل ذلك. {ٱللَّـهُ لاَ إِلَٰـهَ إِلاَّ هُـوَ} أي الله المستحق للمعبودية لا مستحقاً للمعبودية يصح أن يوجد إلا هـو وجملـة «لا إله إلا هو» خبر لاسم الجلالة، {وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ} في كل باب لأنه لا مقصود إلا هو، فإن المـؤمن لا يعتمـد إلا عليـه ولا يتقـوى إلا بـه.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

قال عطاء بن يسار: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، فأراد أن يغزو، فبكوا إليه، ورققوه وقالوا له: إلى من تدعنا؟ فرق عليهم وأقام في البلد وترك الغزو، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة، فمنعهم أزواجهم وأولادهم وقالوا لهم: صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم، فأطاعوهم، وتركوا الهجرة، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأولين قد تفقهوا في الدين هم وا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم وإن لحقوا بهم في دار الهجرة لم ينفقوا عليهم ولم يصيبوهم بخير، فنزل قوله تعالى: {وَأَن تَعْفُواْ} عن ذنوبهم {وَتَصْفَحُواْ} بترك التثريب والتعيير {وَتَغْفِرُواْ} بإخفائها بعدما هاجروا من مكة إلى المدينة فإن الله يعاملكم بمثل ما عملتم، وهذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإسلام فإنهم من الكفار، أما أزواجهم وأولادهم المؤمنون فلا يكونون عدواً لهم {إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ} أي بلاء وشغل عن الآخرة إذ منعوكم عن الهجرة والجهاد فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى، {وَٱللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} لمن آثر محبة الله تعالى وطاعته على محبة الأموال والأولاد {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ} أي ابذلوا في تقوى الله غاية طاقتكم. وهذا مثل قوله تعالى: {ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} (آل عمران: 201) فإنه لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعونه فوق الطاقة، {وَٱسْمَعُواْ} مواعظه {وَأَطِيعُواْ} أوامره، {وَأَنْفِقُواْ} مما رزقكم في الوجوه التي أمركم {خَيْراً لأَنفُسِكُمْ}، أي وأتوا خيراً لأنفسكم {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ} أي من يكفه الله بخل نفسه فيفعل في ماله جميع ما أمر به مطمئناً إليه حتى ترتفع عن قلبه الأخطار، فأولئك هم الفائزون بكل مرام {إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ} أي إن تنفقوا في طاعة الله تعالى من حلال بطيب نفس متقربين إليه يجزكم بالضعف إلى ألفي ألف إلى ما شاء الله من الأضعاف. وقرىء «يضعفه» بتشديد العين. {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} ما فرط منكم من بعض الذنوب ببركة الإنفاق {وَٱللَّهُ شَكُورٌ} يشكر اليسير ويجزي الجزيل من صدقاتكم، {حَلِيمٌ} لا يعجل بالعقوبة على من يمن بصدقته، أو يمتنع من التصدق {عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ} لا يخفى عليه شيء من الخشية والمن {ٱلْعَزِيزُ}، أي الذي لا يعجزه شيء، {ٱلْحَكِيمُ} أي الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير، فالعزيز يدل على القدرة، والحكيم يدل على الحكمة.

سورة الطلاق

مدنية، ثنتا عشرة آية، ومائتان وتسع وأربعون كلمة، وألف ومائة وسبعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} أي إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن مستقبلات لزمان عدتهن وهو الطهر {وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ} أي احفظوا القروء للعدة لتعرفوا زمان

الرجعة، والنفقة، والسكنى، وحل النكاح لأخت المطلقة ونحو ذلك من الفوائد {وَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ} في الإضرار بهن {لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ} أي من مساكنهن عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن {وَلاَ يَخْرُجْنَ} ولو بإذن منكم لأن في العدة حقاً لله تعالى فلا يسقط بتراضيهما، {إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} أي إلا في حال كونهن آتيات بزنا ظاهر، أو مشهود عليه بأربعة شهود فيخرجن لإقامة الحد عليهن، ثم يرددن إلى منزلهن كما قاله ابن مسعود، أو إلا في حال أن يبذون على الأزواج أو على أهلهم فيحل لهم حينئذ إخراجهن لسوء خلقهن كما قاله ابن عباس ويؤيده قراءة إلا أن يفحش عليكم. وقال ابن عمر: الفاحشة: خروجهن قبل انقضاء العدة.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر «مبينة» بفتح الياء التحتية. والباقون بكسرها {وَتِلْكَ} أي الأحكام {حُدُودُ ٱللَّهِ} وهي الموانع عن المجاوزة {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} أي من يتجاوز الحدود فقد ضر نفسه لأنه وضعها في غير موضعها {لاَ تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً} أي فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك التعدي أمراً يقتضي الرجعة بأن يبدل الله ببغض المرأة محبة، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها، فإن العدة إذا لم تكن مضبوطة أو انتقلت المرأة من منزل زوجها أشكل أمر الرجعة {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} أي قاربن انقضاء أجل العتد فأنتم بالخيار {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} أي إن شئتم فراجعوهن بحسن معاشرة وإنفاق لائق {أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} أي وإن شتئم فاتركوهن من غير مراجعة بإيفاء بالحق واتقاء الضرار، وهو أن يراجعها في آخر العدة، ثم يطلقها تطويلاً للعدة وتعذيباً لها، {وَأَشْهِدُواْ} يا أيها الأزواج {ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ} عند التطليق وعند الرجعة قطعاً للنزاع، فهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة وهو عند الشافعي واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة، {وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ} أي أدوا الشهادة التي تحملتموها عند الحكام يا أيها الشهود لوجه الله تعالى {ذَلِكُمْ} أي الإشهاد وإقامة الشهادة {يُوعَظُ بِهِ} أي يؤمر به، {مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَ لْيَوْمِ ٱلآخِرِ}، يقال: نزلت الآيات من أول السورة إلى ههنا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم حين طلق حفصة، وفي ستة نفر من أصحابه طلقوا نساءهم غير طواهر، فنهاهم الله عن ذلك، لأنه لغير السنة، {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ} أي يصبر على المصيبة {يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً} من الشدة.

وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال: «مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة». نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي أسر العدو ابناً له يسمى سالماً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أسر ابني وشكا إليه الفاقة فقال: «اتق الله واصبر وأكثر من قول لا ح.ول ولا قوة إلا بالله»، ففعل ذلك، فبينما هو في بيته إذ أتاه ابنه سالم ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فذلك قوله تعالى: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ} أي من وجه لا يخطر بباله {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} أي ومن يثق بالله فيما ناله فهو كافيه في جميع أموره، {إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِ}.

وقرأ حفص بالإضافة أي منفذ أمره. والباقون بالتنوين ونصب أمره أي يبلغ مراده في جميع خلقه. وقرىء برفع أمره أي نافذ تدبيره. وقرأ المفضل «بالغاً» أمره على أن قوله: {قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ} خبران و «بالغاً» حال من اسم الجلالة {قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ} من الشدة والرخاء {قَدْراً} أي أجلاً ينتهي إليه.

وروي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله قد عرفنا عدة التي تحيض فما عدة التي لم تحض فنزل {وَٱللاَّئِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ} لكبرهم، وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين {إِنِ ٱرْتَبْتُمْ} أي إن أشكل عليكم حملهن في العدة، أو إن جهلتم بمقدار عدتهن {فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ} فقام رجل فقال: يا رسول الله فما عدة الصغير التي لم تحض فنزل، {وَٱللَّٰتِي لَمْ يَحِضْنَ} لصغرهن هن بمنزلة الكبيرة التي قد يئست، وهذه معطوفة على «واللائي يئسن» عطف المفردات فقام رجل آخر وقال: وما عدة الحوامل يا رسول الله فنزل {وَأُوْلَٰتُ ٱلأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} أي والحبالى منتهى عدتهن وأجل انقطاع ما بينهن وبين الأزواج وضع الحمل سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن لخبر سبيعة بنت الحرث أنها وضعت حملها بعد وفاة زوجها بخمسة عشر يوماً، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتزوج فإباحة النكاح قبل مضي أربعة أشهر وعشر دليل على أن عدة الحامل تنقضي بوضع الحمل في جميع الأحوال، والحمل اسم لجميع ما في بطونهن فلا تنقضي العدة بوضع بعض حملهن. وقرىء أحمالهن، {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ} في شأن أحكامه {يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً} أي ييسر الله عليه في أمره ويوفقه للعمل الصالح.

وقال عطاء: يسهل الله عليه أمر الدنيا والآخرة {ذَٰلِكَ} أي الذي ذكر من الأحكام {أَمْرُ ٱللَّهِ}، أي فرائضه {أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ} أي بينه لكم في القرآن، {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ} بطاعته ويعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، {يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَٰتِهِ} من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة فإن الحسنات يذهبن السيئات {وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً} في الآخرة بالمضاعفة، {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ} أي أسكنوا المعتدات مسكناً من بعض مكان سكناكم على قدر طاقتكم ووجدكم بضم الواو باتفاق القراء السبعة.

وقرىء بفتح الواو وكسرها. {وَلاَ تُضَآرُّوهُنَّ} في السكنى والنفقة {لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ} بهما حتى تلجئوهن إلى الخروج من المسكن أو إلى تفتدي الرجعية نفسها منكم، {وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ} أي وإن كن المطلقات حبالى، {فَأَنفِقُواْ} أيها الأزواج {عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} فيخرجن من العدة. وهذا بيان حكم المطلقة البائنة، أما الحوامل المتوفى عنهن أزواجهن فلا نفقة لهن، وأما الرجعية فإنها تستحق النفقة، وإن لم تكن حاملاً ومذهب مالك والشافعي أنه ليس للمبتوتة إلا السكنى، ولا نفقة لها إلا أن تكون حاملاً.

وعن الحسن وحماد لا نفقة لها ولا سكنى لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها بت طلاقها فقال لها رسول الله: «لا سكنى لك ولا نفقة»، وأما عند الحنفية فلكل مطلقة حق النفقة والسكنى لأن عمر قال: سمعت النبي

صلى الله عليه وسلم يقول في شأن المطلقة: «لها النفقة والسكنى»، ولأن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين المبتوتة وغيرها، ولو كان جزاء للحمل لوجب في ماله إذا كان له مال ولم يقولوا به، ونحن معشر الشافعية نقول: إن الحامل قد يتوهم أنها لا نفقة لها لطول مدة الحمل، فأثبت لها النفقة ليعلم أن غيرها بطريق الأولى {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ} أولادكم منهن بعد انقضاء علقة النكاح، {فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} على ذلك الإرضاع ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه للرجل استئجار امرأته للرضاع إذا كان الولد منها ما لم تبن، ويجوز عند الشافعي مطلقاً وفي هذه الآية دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد وحق الإمساك والتربية على الزوجات، وفيها دليل على أن اللبن ملك لها {وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} أي تشاوروا بتراضي الأب والأم، ولا يكن من الأب مماكسة، ولا من الأم معاسرة، ولا من الرجل تقصير في حق المرأة ونفقتها ولا من المرأة في حق الولد ورضاعه، {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ} كأن أبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضع الولد مجاناً {فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ}، أي فسترضع الولد لوالده امرأة أخرى فليس له إكراهها على إرضاعه بل يستأجر الأب للصبي مرضعاً غير أمه {لِيُنفِقْ} على المرضعات المطلقات وعلى خلافها، {ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ} أي ذو غني على قدر غناه {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَاهُ ٱللَّهُ}، أي ومن ضيق عليه معيشته فلينفق على الزوجة والولد الصغير على قدر ما أعطاه الله من المال وإن قل {لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَآ ءَاتَاهَا} أي إلا بقدر ما أعطاها من الرزق جل أو قل فإنه تعالى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني {سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} أي بعد ضيق سعة وبعد شدة رخاء عاجلاً أو آجلاً {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ} أي وكم من أهل قرية أبوا عن قبول أمر ربهم وعن إجابة أمر رسله، {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً} أي فحاسبناهم في الآخرة على أعمالها بالمناقشة في كل نقير وقطمير، {وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً} أي وعذبناهم عذاباً عظيماً وهو عذاب نار جهنم، {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا} أي فذاقوا عقوبة كفرهم، {وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً} أي وكان عاقبة عتوها هلاكاً بعذاب الدنيا وعذاب النار، {أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ} في الآخرة {عَذَاباً شَدِيداً} لوناً بعد لون {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} عن أن تكفروا به وبرسوله {يٰأُوْلِي ٱلأَلْبَابِ} أي يا ذوي العقول من الناس، {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراًرَّسُولاً} والوقف على «ذكراً» تام إن نصب «رسولاً» بالإغراء أي عليكم رسولاً، أو بفعل مقدر، أي وأرسل رسولاً فحينئذ فالذكر هو القرآن والرسول هو النبي صلى الله عليه وسلم، ولا وقف على «ذكراً» إن جعل «رسولاً» بدلاً منه فحينئذ فالذكر الرسول هو جبريل عليه السلام، سمي بالذكر لأنه مذكور في السموات أو في الأمم، أو لشرفه، ويؤيده قراءة رسول بالرفع، أي هو رسول {يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ} أي القرآن {مُبَيِّنَٰتٍ}.

وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسر الياء، لأن الآيات تبين الأحكام من الأمر والنهي والحلال والحرام. والباقون بالفتح لأن الله تعالى أوضح الآيات وبين أنها من عنده، {لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ} أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمة الشبهة إلى نور الحجة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، وقوله تعالى: {لّيُخْرِجَ} إما متعلق بأنزل والضمير فيه راجع إلى اسم الجلالة، أو ب «يتلو» فالضمير فيه راجع للرسول، {وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحاً} فيما بينه وبين ربه {يُدْخِلْهُ} في الآخرة {جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً} وقرأ نافع وابن عامر «ندخله» بالنون {قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقاً}.

قال الزجاج: أي قد رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها وقيل: قدر رزقه الله طاعة في الدنيا وثواباً في الآخرة، وجملة «قد أحسن الله» إلخ حال ثانية من مفعول «يدخله».

{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ} بعضها فوق بعض مثل القبة، {وَمِنَ ٱلأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} أي في العدد لكنها منبسطة، والعامة بنصب مثلهن عطفاً على سبع سموات. وقرأ عاصم في رواية برفعه على الابتداء .وخبره من الأرض.

روى البخاري وغيره أن كعباً حلف بالذي فلق البحر لموسى أن صهيباً حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر من فيها». {يَتَنَزَّلُ ٱلأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} أي ينفذ تصرفه فيهن، ويجري قضاؤه بينهن.

قال عطاء: أي يتنزل الوحي إلى الخلق في كل أرض، وفي كل سماء، وقال مقاتل: يتنزل الوحي من السماء العليا إلى الأرض السفلى، وقال مجاهد: يتنزل الأمر بينهن بحياة بعض وموت بعض، وسلامة هذا وهلاك ذاك مثلاً. وقرىء «ينزل الأمر بينهن»، {لِّتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} أي لكي تعلموا إذا تفكرتم في خلق السموات والأرض أن من بلغت قدرته هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يكون لغيره كانت قدرته ذاتية، لا يعجزه شيء عما أراده وقوله تعالى: {لِّتَعْلَمُواْ} متعلق ب «خلق» أو ب «يتنزل»، وقرىء «ليعلموا» بالياء {وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ} من الكليات والجزئيات {عِلْمَا} لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، فتبارك الله رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سورة التحريم

وتسمى سورة النبي صلى الله عليه وسلم. مدينة، ثنتا عشرة آية، ومائتان وتسع وأربعون كلمة، وألف وستون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. يٰأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ} أي لم تمتنع عن الانتفاع بما أحل الله تعالى لك من ملك اليمين أو من العسل.

روي أنه صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم حفصة وعلمت بذلك عائشة فقال لها: «اكتمي علي فقد حرمت مارية على نفسي وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي»، فأخبرت بذلك عائشة وكانتا

متصادقين فطلق حفصة، واعتزل نساءه، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية.

وروي أن عمر قال لها: لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله طلقك، فنزل جبريل عليه السلام وقال له صلى الله عليه وسلم: راجعها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة وهذا قول الحسن ومجاهد، وقتادة، والشعبي، ومسروق، ورواية ثابت عن أنس ورواية البزار من حديث ابن عباس، ورواية الطبراني من حديث هريرة، ورواية الضياء من حديث عمرو الذي في الصحيحين أن الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه هو شرب العسل، فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير، وهو صمغ حلو له رائحة كريهة، فحرم العسل على نفسه فنزلت هذه الآية {تَبْتَغِى} أي تطلب بتحريم مارية أو العسل، {مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ} عائشة وحفصة {وَٱللَّهُ غَفُورٌ} قد غفر لك هذه الزلة {رَّحِيمٌ} قد رحمك في تلك اليمين. وقد نقل جماعة من المفسرين: أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف أن لا يطأ جاريته، فذكر الله له ما أوجب من كفارة اليمين، وأيضاً أن أبا حنيفة يرى تحريم الحلال يميناً في كل شيء، فإذا حرم شخص طعاماً فقد حلف على أكله أو أمة، فعلى وطئها أو زوجة فعلى الإيلاء منها، إذا لم يكن له نية وإن نوى الظهار وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وإن نوى عدداً كأن نوى ثنتين أو ثلاثاً، فكما نوى، وإن قال: كل حلال علي حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو، وإلا فعلى ما نوى، ولا يراه الشافعي يميناً، ولكن سبباً في الكفارة في النساء فقط وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده، {قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ} أي أوجب الله عليكم كفارة ككفارة أيمانكم أو قد بيَّن الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة، فإذا كفر الحالف صار كمن لم يحلف. وقرىء كفارة أيمانكم، {وَٱللَّهُ مَوْلَٰكُمْ} أي حافظكم وناصركم {وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ} بما يصلحكم {ٱلْحَكِيمُ} أي المتقن في أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا ما تقتضيه الحكمة، {وَإِذَ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِ حَدِيثاً} أي واذكر إذ أخبر النبي حفصة في السر بكلام استكتمها ذلك.

قال ابن عباس: لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها فأسر إليها بشيئين، تحريم مارية على نفسه والبشارة بأن الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم في أبي بكر وأبيها عمر، {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ}.

قرأ الجمهور بتشديد الراء، أي فلما أخبرت حفصة بسر النبي صلى الله عليه وسلم عائشة ظناً منها أنه لا حرج عليها في ذلك، وأطلع الله نبيه على ما أخبرت حفصة عائشة بين النبي لحفصة بعض ما قالت لعائشة من خلافة أبي بكر وعمر وعاتبها على ذلك خوفاً من أن ينشر في الناس، فربما أثار حسد بعض المنافقين. وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لها: «ويلك ألم أقل لك اكتمي عليٰ» قالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما ملكت نفسي فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله تعالى بها أبي.

وقرأ الكسائي بالتخفيف أي جازى على ذلك البعض بأن طلق حفصة مجازاة على بعض ما فعلت، {وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ} أي وسكت عن بعض من تحريم مارية القبطية على نفسه، ولم يلم حفصة على ذكر ذلك حياء وحسن عشرة، {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ} أي فلما أخبر النبي حفصة بما قالت لعائشة {قَالَتْ} أي حفصة: {مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا} أي من أخبرك بأني أفشيت السر لعائشة، وقد ظننت أن عائشة هي التي أخبرته. {قَالَ} أي النبي صلى الله عليه وسلم: {نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ} بقولك لعائشة وبقولي لك. {إِن تَتُوبَآ} يا حفصة ويا عائشة من إيذائكما رسول الله صلى الله عليه وسلم {إِلَى ٱللَّهِ} تاب الله عليكما {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} أي فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، إذ قد مالت قلوبهما عن الحق وأحبت ما كرهه النبي صلى الله عليه وسلم وهو اجتنابه جاريته. وقرىء «فقد زاغت». {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ الْمُؤْمِنِينَ} أي وإن تتعاونا أنتما على النبي صلى الله عليه وسلم بالإيذاء لم يضره ذلك التعاون منكما، فإن الله ناصره، وجبريل رئيس الكروبيين وأبو بكر وعمر، كما أخرجه الطبراني عن ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس وبه قال عكرمة ومقاتل، {وَالْمَلَٰئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ} أي بعد نصر من ذكر {ظَهِيرٌ} أي أعوان له صلى الله عليه وسلم فقوله: {جِبْرِيلُ} عطف على محل اسم «إن» قبل دخولها وكذا «وصالح المؤمنين»، ف «مولاه» خبر عن الكل فيقدر بعد كل واحد منهما، ويجوز أن يكون الكلام عند قوله تعالى: {عَلَىٰ مَوْلاهُ} ويكون «جبريل» مبتدأ وما بعده عطف عليه، و «ظهير» خبراً لجميع. وقرأ الكوفيون «تظاهراً» بتخفيف الظاء وإسقاط إحدى التاءين. والباقون بتشديدها. وقرىء على الأصل أي بالتاءين، وقرىء «تظهراً». {عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَٰجاً خَيْراً مِّنكُنَّ}. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال. والباقون وهم أهل الكوفة بسكونها.

وقال ابن عرفة: و «عسى» هنا للتخويف لا للوجوب، وجملة «عسى» واسمها وخبرها جواب الشرط أي إن طلقكن فعسى ربه أن يبدله {مُسْلِمَٰتٍ} أي مقرات بالألسن، {مُّؤْمِنَٰتٍ} أي مصدقات بالقلوب بتوحيد الله تعالى، {قَٰنِتَٰتٍ} أي مطيعات لله ولأزواجهن. وقيل: قائمات بالليل للصلاة {تَٰئِبَٰتٍ} من الذنوب، {عَٰبِدَٰتٍ} أي كثيرات العبادات متذللات لأمر الرسول عليه السلام، {سَٰئِحَٰتٍ} أي صائمات كما قاله ابن عباس، أو مهاجرات كما قاله الحسن. وقرىء «سيحات». {ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَاراً} فالثيب: تمدح من جهة أنها أكثر تجربة وعقلاً، وأسرع حبلاً غالباً، والبكر: تمدح من جهة أنها أطهر وأطيب وأكثر مداعبة غالباً، وسميت الثيب ثيباً، لأنها ثابت أي رجعت إلى بيت أبويها، وسميت العذراء بكراً لأنها على أول حالتها التي خلقت بها.

{يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً} أي علموا أنفسكم ونساءكم وأولادكم الخير، وأدبوهم بأن تأمروهم بالخير وتنهوهم عن الشر تقوهم بذلك ناراً، وقرىء «وأهلوكم» عطفاً على «واوقوا» فيكون أنفسكم عبارة عن أنفس الكل، أي قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ناراً، {وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَ ٱلْحِجَارَةُ} أي حطبها الكفار وحجارة الكبريت. وقرىء

«وقودها» بضم الواو {عَلَيْهَا}، أي النار {مَلَٰئِكَةٌ} تسعة عشر وهم الزبانية، {غِلَاظٌ} أي غلاظ القلوب لا يرحمون، إذا استرحموا خلقوا من الغضب وحبب إليهم عذاب الخلق كما حبب لبني آدم أكل الطعام والشراب، {شِدَادٌ} أي شداد الخلق، أقوياء على الأفعال الشديدة، {لاَّ يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ} بدل اشتمال من الله، أي لا يعصون أمره، أو منصوب على نزع الخافض. أي فيما أمرهم به من عذاب أهل النار، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} أي يؤدون ما يؤمرون به من غير توانٍ ويقولون للكفار عند ادخالهم النار: {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ} إذ الاعتذار هو التوبة، وهي غير مقبولة بعد الدخول في النار فلا ينفعكم الاعتذار، {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، أي جزاء أعمالكم، أي إنما أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب. {يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً} أي بالغة في النصح بأن يتوبوا عن القبائح نادمين عليها غاية الندامة، لا يعودون إليها، وقرأ شعبة بضم النون وهو مصدر، أي ذات نصوح أو تنصح نصوحاً، أو توبوا لينصح أنفسكم. والباقون بفتحها فهو صفة مشبهة، {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} أي أن يغفر لكم ذنوبكم بالتوبة {وَيُدْخِلَكُمْ} في الآخرة {جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ} ظرف «ليدخلكم»، {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ} أي صاحبوه في وصف الإيمان، والموصول إما معطوف على النبي وإما مبتدأ خبره جملة قوله تعالى: {نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} عند المشي على الصراط، {وَبِأَيْمَٰنِهِمْ} أي ويسعى عن إيمانهم عند الحساب، لأنهم يؤتون التاب بإيمانهم وفيه نور {يَقُولُونَ} أي المنافقين خائفين من أن يطفأ نورهم {رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} أي أبق لنا نورنا {وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. وقيل: الذين يمرون على الصراط حبواً وزحفاً هم الذين يقولون: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}. {يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ} بالسيف والسنان {وَٱلْمُنَٰفِقِينَ} بالحجة واللسان، {وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ} أي واشدد على كلا الفريقين فيما تجاهدهما من القتال والمحاجة، {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ} مصيرهم {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي جعل الله مثلاً لحال هؤلاء الكفار، {ٱمْرَأَتَ نُوحٍ} والهة {وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ} والعة {كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا} بالكفر، كما قاله عكرمة والضحاك. وعن ابن عباس ما بغت أمرأة نبي قط. وعن ابن عباس كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وإذا آمن به أحد أخبرت الجبابرة من قومه وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً} أي فلم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما عند الله تعالى عن زوجتيهما لما عصتا من عذاب الله شيئاً، وذلك تنبيه على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة، {وَقِيلَ ٱدْخُلاَ ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} أي وتقول لهما خزنة النار: ادخلا النار مع الداخلين في النار {وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ} أي جعل الله حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفرة لا تضر مع الإيمان، واسمها آسية بنت مزاحم آمنت حين سمعت قصة إلقاء موسى عصاه، وتلقف العصا، فعذبها فرعون عذاباً شديداً بسبب الإيمان، فإنه أوتدها بأربعة أوتاد، واستقبل بها الشمس، وألقى عليها صخرة عظيمة فقالت: رب نجني من فرعون، فرقى بروحها إلى الجنة، فألقيت الصخرة

على جسد لا روح فيه، {إِذْ قَالَتْ} ظرف ل «مثلاً» : {رَبِّ ٱبْنِ لِى عِنـدَكَ بَيْتـاً فِـى ٱلْجَنَّـةِ} أأي رب ابـن لـي بيتـاً قريبـاً مـن رحمتـك، {وَنَجِّنِـى مِـن فِرْعَوْنَ} أي من نفسه الخبيثة، {وَعَمَلِهِ} السيىء، وهو شـركه أو جمـاعه، كما قاله ابن عباس، {وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي من القبـط التـابعين له في الظلم، {وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ ٱ لَّتِ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَـا} مـن الفـواحش فإنها قذفت بالزنا {فَنَفَخْنَا فِيهِ} أي في فرجها، كما قاله البقـاعي. وقرىـء فيها أي في مريم. وقال الرازي: وقوله تعالى فيه أي في عيسى ومـن قـرأ فيها في نفس عيسى، {مِن رُّوحِنَـا} أي مـن روح خلقنـاه بلا توسـط أصـلاً. والمعنى: أوصلنا إلى فرجها الريح الخارج مـن نفـس جبريـل لمـا نفـخ فـي جيب قميصها، فوصل إليه، فحملت بعيسـى، {وَصَـدَّقَتْ بِكَلِمَٰـتِ رَبِّهَـا} أي بالصحف المنزلة على إدريس وغيره. قال مقاتـل: أي بعيسـى ويـدل عليـه قراءة الحسن بكلمة ربها بالإفراد وقرىء «بكلمة الله». {وَكُتُبِهِ}، وقرأ أبو عمرو وحفص بصيغة الجمع أي بالكتب الأربعة، والباقون و «كتابه» بالإفراد أي وبكتابه المنزل عليه وهو الإنجيل، وقوله تعالى: {وَصَـدَّقَتْ} بـالتخفيف والتشديد على أن مريم جعلـت الكلمـات والكتـب صـادقة بمعنـى وصـفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينـه {وَكَـانَتْ مِـنَ ٱلْقَٰنِتِيـنَ} أي مـن القـوم المطيعين لله في الشدة والرخاء.

وقال عطاء: من المصلين، وهم رهطها، لأنهم أهل بيت صالحين، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى، وضرب هذه الأمثال مشـتمل علـى فوائـد: منها: التنبيه على الثواب العظيم والعذاب الأليم. ومنهـا: العلـم بـأن صـلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضر المصـلح. ومنهـا: أن الرجـل وإن كان في غاية الصلاح فلا يـأمن المـرأة ولا يـأمن نفسـه. ومنهـا: العلـم بـأن إحصان المرأة مفيد غاية الإفادة. ومنها: التنـبيه علـى أن التضـرع بالصـدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلـى الخلاص م ن العقـاب وإلـى الثـواب بغيـر حساب، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب.

سورة الملك

وتسمى الواقية والمنجية، لأنها تقي وتنجي قارئهـا مـن عذاب القبر. وعن ابن عباس أنه كـان يسـميها المجادلـة، لأنهـا تجادل عن قارئها في القبر، وتدعى في التوراة المانعة، مكيـة، ثلاثون آية، وثلاثمائـة وخمـس وثلاثـون كلمـة، وألـف وثلاثمائـة وثلاثة عشر حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ} أي تنزه الذي في قدرته سائر الكائنات عن أن يكون جسماً أو في مكان غير ذلك من صـفات الحوادث، {وَهُـوَ عَلَـىٰ كُـلِّ شَـىْءٍ} مـن الأشـياء {وَهُـوَ عَلَـىٰ كُـلِّ شَـىْءٍ} يتصرف فيه حسب ما تقتضيه مشيئته يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميـت، ويغنـي ويفقـر، ويعطـي ويمنـع، { ٱلَّـذِى خَلَـقَ ٱلْمَـوْتَ وَ ٱلْحَيَـوٰةَ} فالموت صفة وجودية مضادة للحياة. والمراد به الموت الطارىء، وبالحيـاة ما قبله وما بعده. وروى الكلبي عن ابـن ابـن عبـاس: أن اللـه تعـالى خلـق

الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء، ولا يجد رائحته شيء إلا مات وخلق الحياة في صورة فرس بلقاء فوق الحمار، ودون البغل، لا تمر بشيء ولا يجد رائحتها شيء إلا حيي اه.

وهذا كلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير. {لِيَبْلُوَكُمْ} وهو متعلق بخلق، أي خلق موتكم وحياتكم ليعاملكم معاملة من يختبركم، {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي أخلص عملاً وأصوبه كما قاله الفضيل ابن عياض اه.

وقال قتادة: أي أيكم أحسن عقلاً، أي أتمكم عقلاً، وأشدكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً.

وقال الحسن: أيكم أزهد في الدنيا وأشد تركاً لها. وقال السدي: أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن استعداداً وأشد خوفاً وحذراً. {وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ} أي الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، {ٱلْغَفُورُ} لمن تاب من أهل الإساءة {ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا} أي مطابقة بعضها فوق بعض، والسماء الدنيا محيطة بالأرض إحاطة قشر البيضة من جميع الجوانب، والثانية محيطة بالسماء الدنيا، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل، {مَّا تَرَىٰ} أيها المخاطب {فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ} للسموات ولغيرها {مِن تَفَٰوُتٍ}، أي من عدم تناسب.

قرأ حمزة والكسائي «من تفوت» بتشديد الواو، {فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ} أي رد بصرك إلى السماء {هَلْ تَرَىٰ} فيها {مِن فُطُورٍ}، أي شقوق وعيوب، {ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} أي ارجع البصر إلى السماء رجعة بعد رجعة وإن كثرت {يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلبَصَرُ خَاسِئًا}، أي بعيداً من إصابة ما التمسه من العيب، {وَهُوَ حَسِيرٌ} أي كليل لكثرة المراجعة، {وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا} أي القربى من الناس {بِمَصَٰبِيحَ} أي بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السرج، {وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ} أي جعلنا الكواكب رجم أعدائكم بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب، إذا أرادوا استراق السمع، {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ} في الآخرة {عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ} بعد الإحراق في الدنيا بالشهب،

{وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ} من الشياطين وغيرهم، {عَذَابُ جَهَنَّمَ}.

وقرىء بالنصب على أنه عطف على عذاب السعير، كما أن «للذين» عطف على «لهم»، فهو عطف المفرد على المفرد وعلى هذا، فالوقف على «السعير» جائز. وإن قرىء عذاب جهنم بالرفع كما هو قراءة الجمهور فالوقف على «السعير» تام، {وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ} جهنم {إِذَآ أُلْقُواْ} أي الكفار {فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا} أي لجهنم {شَهِيقًا} أي صوتاً كصوت الحمار، {وَهِىَ تَفُورُ} أي والحال أن جهنم تغلي بهم غليان المرجل بما فيه، {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ} أي تقرب جهنم تتفرق من شدة الغضب على الكفار.

وقرىء شاذاً «تتميز» على الأصل، {كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ} أي جماعة من الكفرة {سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ} بطريق التوبيخ والتقريع، {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} يتلو عليكم آيات ربكم وينذركم لقاء يومكم هذا؟ {قَالُواْ} اعترافاً منهم بعدل الله وإقراراً بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل: {بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} ذلك النذير في كونه نذيراً من جهة الله تعالى {وَقُلْنَا} في حق ما تلاه من الآيات: {مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ} على أحد {مِن شَىْءٍ} أي من كتاب، {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ} أي ما أنتم أيها النذر في ادعاء أنه تعالى نزّل

عليكم آيات إلا في ضلال كبير أي بعيد عن الصواب، ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الخزنة للكفار. والمعنى: ما أنتم أيها الكفار إلا في ضلال كبير في الدنيا، وهو الشرك بالله، وفي هلاك عظيم في العذاب. {وَقَالُواْ} للخزنة: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ} أي لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالباً للحق أو نعقله عقل من كان متفكراً لما كنا اليوم مع أهل الوقود في النار، {فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ} أي أقروا بتكذيبهم الرسل وبكفرهم بآيات الله، {فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ} وهو منصوب إما على المفعول به أي ألزمهم الله سحقاً، أي بعداً من رحمته أو على المصدر والتقدير: سحقهم الله سحقاً أي باعدهم الله من رحمته مباعدة. وقرأ الكسائي بضم الحاء {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ} أي حال كونهم في الخلوة حيث لا يراهم الناس، {لَهُم مَّغْفِرَةٌ} لذنوبهم {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} في الجنة {وَأَسِرُّواْ} أيها الناس {قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ}، أي عليم بالقلوب وأحوالها، فاحذروا من المعاصي سراً كما تحترزون عنها جهراً، فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى.

قال ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله، فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد، فأنزل الله هذه الآية {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} أي ألا يعلم السر والجهر من أوجد جميع الأشياء، فمن خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه {وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ}، أي والحال أنه تعالى الفاعل للأشياء اللطيفة، العالم ببواطن الأمور {هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا}، أي لينة يسهل عليكم السلوك فيها، {فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا} أي فاسلكوا في جوانبها، {وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ} أي كلوا مما خلقه الله رزقاً لكم في الأرض، {وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ} أي المرجع بعد البعث، فبالغوا في شكر نعمه، {ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ} ف «أن يخسف» بدل اشتمال من «من»، أي أتأمنون يا أهل مكة من قد أقررتم بأنه في السماء، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء، وهو متعالٍ عن المكان أن يغور بكم الأرض بعدما جعلها لكم لينة، {فَإِذَا هِىَ} أي الأرض {تَمُورُ} أي تضطرب وتتقلب، {أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ} أي بل أأمنتم أيها المكذبون من تزعمون أنه في السماء، وهو منزه عن المكان {أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} أي ريحاً فيها حجارة، {فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} أي فستعلمون عاقبة إنذاري إياكم {وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي من قبل كفار مكة من كفار الأمم السالفة، {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} أي إنكاري وتغييري عليكم أليس وجدوا العذاب حقاً،

{أَوَلَمْ يَرَوْا} أي أغفلوا ولم ينظروا {إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ} أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها {وَيَقْبِضْنَ} أي يضممنها إذا ضربن بها جنوبهن حيناً فحيناً {مَا يُمْسِكُهُنَّ} في الجو عند البسط والقبض {إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ} أي الواسع رحمته كل شيء، وهذه الجملة متسأنفة، فالوقف على يقبضن تام كالوقف هنا {إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ} فيكون الله رائياً لنفسه ولجميع الموجودات، {أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ} أي بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ف «أم» بمعنى بل و «من» اسم استفهام مبتدأ خبره اسم الإشارة.

وقرأ طلحة بتخفيف الميم هنا وتشديده، ثم والمعنى: أهذا الذي هو جند لكم أم الذي يرزقكم، {يَنصُرُكُمْ مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ} أي ما الكافرون إلا في غرور من الشيطان، فهو يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم، أعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول معتمدين على شيئين: أحدهما: قوتهم بمالهم وجندهم. وثانيهما: اعتقادهم أن الأوثان توصل إليهم جميع الخيرات وتدفع عنهم جميع الآفات وقد أبطل الله عليهم الأول بقوله تعالى: {أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ} الآية. ورد عليهم الثاني بقوله تعالى: {أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ} أي بل من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم بل لو كان الرزق موجوداً سهل التناول، فوضع الآكل لقمة في فيه، فأمسك الله تعالى عنه قوة الازدراد لعجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوا تلك اللقمة، {بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} أي بل تمادوا في أباء عن الحق وشراد عن الإيمان، ثم ضرب الله مثلاً للمشرك والموحد فقال: {أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، أي أفمن يمشي في مكان غير مستوٍ فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة أهدى إلى المقصد، أم من يمشي معتدلاً على طريق مستوٍ لا عوج فيه ولا انحراف سالماً من العثور والخرور؟ {قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ} أي أوجدكم إيجاداً بديعاً، {وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ} لتسمعوا به الآيات القرآنية، {وَٱلْأَبْصَٰرَ} لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية، {وَٱلْأَفْئِدَةَ} لتتفكروا بها فيما تسمعونه من الآيات التنزيلية، وفيما تشاهدونه من الآيات التكوينية، {قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} لأن شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل إلى غير طلب مرضاته، فأنتم ما شكرتم نعمته ألبتة {قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ}، أي خلقكم وكثركم {فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} في الآخرة للجزاء، {وَيَقُولُونَ} أي كفار مكة من فرط عنادهم، {مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ} أي الحشر الموعود {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} أي إن كنتم صادقين بما تخبرونه من مجيء الساعة والحشر فبينوا وقته، {قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ} بوقت مجيئه {عِندَ ٱللَّهِ} لا يطلع عليه غيره، {وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أنذركم وقوع الموعود، فإن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأول كافٍ في الإنذار، العلم الثاني ليس إلا الله، {فَلَمَّا رَأَوْهُ} أي العذاب بعد الحشر {زُلْفَةً} أي ذا قرب {سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي اسودت وجوههم، وعلتها الكآبة، وصارت كوجه من يقاد إلى القتل، {وَقِيلَ} أي قال لهم الخزنة توبيخاً: {هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ} أي تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاء، أو هذا الذي كنتم تدعون أنه باطل لا يأتيكم.

وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والضحاك، ويعقوب، وأبو زيد، وأبو بكر، وابن أبي عبلة، ونافع في رواية الأصمعي بسكون الدال من الدعاء وهي مؤيدة للقول بأن تدعون مثقلة من الدعاء في قراءة العامة. وقيل: من الدعوى. {قُلْ أَرَءَيْتُمْ} أي أخبروني {إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ}، أي إن أماتني الله {وَمَن مَّعِىَ} من المؤمنين {أَوْ رَحِمَنَا} بتأخير آجالنا، فأيّ راحة لكم في ذلك، وأي منفعة لكم فيه.

يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك حين خوَّفهم النبي بعذاب الله، {فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} أي من الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم أتظنون أن الأصنام تجيركم، فإذا علمتم أن لا مجير لكم منه سواء متنا أو بقينا فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث، {قُلْ هُوَ} أي الذي أدعوكم إلى عبادته {ٱلرَّحْمَٰنُ} أي معطي النعم كلها {ءَامَنَّا بِهِ} ولم نكفر به كما كفرتم، {وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} لا على غيره كما فعلتم حيث توكلتم على رجالكم وأموالكم وهو لا يقبل دعاءكم، لأنكم أهل الكفر، {فَسَتَعْلَمُونَ} عند معاينة العذاب في الآخرة {مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي ظاهر، أنحن أم أنتم.

وقرأ الكسائي «فسيعلمون» بالياء التحتانية. {قُلْ أَرَءَيْتُمْ} أي أخبروني {إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً} أي إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض بالكلية أو بحيث لا تناله الدلاء، {فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ} أي ظاهر، سهل المأخذ تراه العيون فلا بد لهم، وأن يقولوا: لا يأتينا به إلا الله فقل لهم حينئذ: فَلِمَ تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في المعبودية؟ وكان ماؤهم من بئر زمزم، وبئر ميمون. ويستحب أن يقول القارىء عقب {مَّعِينٍ}: الله رب العالمين، كما ورد في الحديث.

سورة القلم

وتسمى سورة ن. مكية، اثنتان وخمسون آية، وثلاثمائة كلمة، وألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. نٓ} أقسم الله بالنون، وهي السمكة التي تحمل الأرضين على ظهرها، واسمها: ليواش، وهي في الماء تحت الأرض السفلى وتحتها الثور، واسمه: يهموت وتحته الصخرة، وتحتها الثرى، ولا يعلم ما تحته إلا الله تعالى وهذا مروي عن ابن عباس. وقيل: إنه تعالى أقسم بالحوت الذي احتبس يونس عليه السلام في بطنه، وقيل: إنه تعالى أقسم بالحوت الذي لطخ سهم نمروذ بدمه. والقول الثاني: وهو مروي أيضاً عن ابن عباس أن النون هو الدواة، وعلى هذا أقسم الله تعالى بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما عظيمة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة». {وَ ٱلْقَلَمِ} أقسم الله بالقلم وهو قلم من نور، طوله كما بين السماء والأرض، {وَمَا يَسْطُرُونَ} أي وما كتب الملائكة في صحفهم يكتبون فيها المقادير التي تنفع في العالم، ينتسخون ذلك من اللوح المحفوظ، {مَآ أَنتَ} يا أكرم الخلق {بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} أي أنت بريء من الجنون ملتبساً بنعمة الله التي هي النبوة والرئاسة العامة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم غاب عن خديجة إلى حراء، فطلبته، فلم تجده، فإذا به وجهه متغير فقالت له: م ا لك؟ فذكر نزول جبريل عليه السلام وأنه قال له: اقرأ باسم ربك، قال صلى الله عليه

وسلم: «ثم نزل بي إلى قرار الأرض فتوضأ، ثم توضأت، ثم صلى وصليت معه ركعتين، وقال: هكذا الصلاة يا محمد» فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لخديجة ذهبت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، فسألته فقال: أرسلي إلي محمداً، فأرسلته، فأتاه فقال: هل أمرك جبريل أن تدعو إلى الله أحد فقال: لا، فقال: والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنك نصراً عزيزاً، ثم مات قبل دعاء الرسول، فلما دعا صلى الله عليه وسلم كفار قريش إلى الله قالوا: إنه لمجنون، فأقسم الله تعالى على أنه ليس بمجنون، {وَإِنَّ لَكَ} يا أكرم الخلق على ما تحملت من أثقال الرسالة ومن ألوان الشدائد من جهة قومك {لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ} أي غير مقطوع، {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} كانت نفسه صلى الله عليه وسلم شديدة النفرة عن اللذات البدنية والسعادات الدنيوية بالطبع، ومقتضى الفطرة عن عائشة قالت: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، وقال أنس: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي في شيء فعلته: لم فعلت؟ ولا في شيء لم أفعله: هلا فعلت. {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} أي فستعلم يا محمد ويعلم المشركون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل، أو فسترى يا محمد ويرون في الدنيا أنك تصير معظماً في القلوب وأنهم يصيرون ذليلين،

{بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ} والباء إما زائدة أي أيكم الذي فتن بالجنون، أو بمعنى في أي الفريقين المجنون، أفي فرقة الإسلام، أم في فرقة الكفار ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة في «أيكم». وقيل: إن المفتون مصدر جاء على مفعول والتقدير: بأيكم الفتون؟ أي الجنون. {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ}، أي هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله تعالى المؤدي إلى سعادة الدارين، {وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ} أي وهو أعلم بالعقلاء وهو المهتدون إلى سبيله، الفائزون بكل مطلوب، الناجون عن كل محذور، {فَلاَ تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ} وهم رؤساء أهل مكة الذين دعوه صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائهم، {وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} أي تمنوا إن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك وإن يتركوا بعض ما لا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك، و «لو» مصدرية، أي ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في ادهانك، {وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ} أي كثير الحلف في الحق والباطل، {مَّهِينٍ} أي ضعيف في دين الله، حقير في التدبير والتمييز، {هَمَّازٍ} أي عياب طعان، {مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ} أي نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم، {مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ} أي بخيل بالمال، أو مناع للناس من الدخول في دين الإسلام {مُعْتَدٍ} أي ظلوم {أَثِيمٍ}، أي مبالغ في الإثم، {عُتُلٍّ} أي شديد الخصومة أو واسع البطن {بَعْدَ ذَلِكَ}، أي مع تلك المثالب {زَنِيمٍ}، أي دعي ملصق بالقوم وليس منهم، والظرف متعلق «بزنيم».

قيل: هو الوليد ادعاه المغيرة بعد ثماني عشرة سنة من ولادته ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب، ولما نزلت هذه الآية قال لأمه: إن محمداً وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها، فإن لم تصدقيني

الخبر ضربت عنقك. فقالت له: إن أباك أي المغيرة عنين، فخفت على المال، فمكنت الراعي من نفسي، وكان للوليد عشرة من البنين، وكان يقول لهم ولأقاربه: لئن تبع دين محمد أحد منكم لا أنفعه بشيء أبداً، فمنعهم من الإسلام، وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفاً وألفاً، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً. وهذه الآية عند أكثر المفسرين نزلت في الوليد بن المغيرة، وعند ابن عباس في أبي جهل، وعند مجاهد في الأسود بن عبد يغوث، وعند السدي في الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة. {أَن كَانَ} أي لأجل أن كان هذا الموصوف، {ذَا مَالٍ}، وهذا إما متعلق بما قبله أي {لاَ تُطِعْهُ كُلَّ حَلاَّفٍ} الآية، لكثرة ماله وأولاده أو بما دل عليه ما بعده، أي إنه كفر بآياتنا، لأن كان ذا مال وبنين وفي قراءة سبعية «أأ» بهمزتين مفتوحتين أي ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه أو ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر، وكان مال الوليد بن المغيرة نحو تسعة آلاف مثقال من فضة وبنوه عشرة، {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا} أي القرآن {قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ}، أي هي أحاديث الأولين في كذبهم، {سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ} أي سنجعل له في الآخرة علامة على أنفه، يعرف بها أهل القيامة أنه كان في عداوة الرسول وفي إنكار الدين الحق. كما قاله قتادة.

قال ابن عباس: أي سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش. وروي أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال، {إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ} أي أهل مكة بالقحط بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم عليهم بعد يوم بدر سبع سنين {كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ} أي أهل البساتين كانت بصروان.

روي أن واحداً من ثقيف وكان مسلماً كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيباً وافراً للفقراء، فلما مات ورثها منه بنوه وقالوا: عيالنا كثير والمال قليل، ولا يمكننا أن نعطي المساكين مثل ما كان يفعل أبونا، فأحرق الله جنتهم، وكانوا بعد عيسى ابن مريم بزمن يسير، {إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} أي حين حلفوا بالله ليقطعن ثمر نخليهم في وقت الصباح، {وَلاَ يَسْتَثْنُونَ} أي لا يقولون: إن شاء الله أو ولا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعله أبوهم،

{فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ}، أي فطرقها في الليل طارق من عذاب الله.

قال الكلبي: أرسل الله عليها ناراً من السماء فاحترقت وهم نائمون، {فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ} أي فصارت البساتين بـ الاحتراق شبيهة بالبستان الذي صرمت ثماره بحيث لم يبق منها شيء، أو صارت كالليل في اسودادها، أو كالنهار في ابيضاضها من فرط اليبس {فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ} أي فنادى بعضهم بعضاً عند طلوع الفجر، أي اذهبوا إلى الثمار والزروع والأعناب، فاصرموها إن كنتم قاصدين للصرم ولا تخبروا المساكين، {فَٱنطَلَقُواْ} إلى البساتين {وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ}، أي والحال أنهم يتسارون فيما بينهم كلاماً خفياً {أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ}، و «أن» مفسرة أي لا تدخلوا مسكيناً في البساتين. وقرأ ابن مسعود بطرح «أن» على إضمار القول. والمعنى: «يتخافتون»

يقولون: لا تمكنوا المسكين من الدخول في البساتين حتى يـدخل {وَغَـدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ} أي وصاروا قاصدين إلى بساتينهم قادرين على صرامها، ومنع منفعتها على المسـاكين فـي ظنهـم، أو أرادوا أن يحرموا المسـاكين وهـم قـادرون علـى نفعهـم، {فَلَمَّـا رَأَوْهَـا قَـالُوٓاْ إِنَّـا لَضَـآلُّونَ بَـلْ نَحْـنُ مَحْرُومُونَ}، أي لمـا رأوا جنتهـم محترقـة ظنـوا أنهـم قـد أخطـؤا الطريـق فقالوا: إنا لضالون طريق بستاننا، ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: لسنا ضالين بل نحن محرومـون منفعـة جنتنـا بشـؤم عزمنـا علـى البخـل، ومنـع الفقـراء، ويحتمـل أنهـم لمـا رأوا جنتهـم محترقـة قـالوا: إنـا لضـالون فـي الاعتقاد حيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بهـا، وحيـث كنـا عـازمين على منع الفقراء بل الأمر انقلب علينا فصرنا محرومين، {قَالَ أَوْسَـطُهُمْ} أي أفضلهم: {أَلَـمْ أَقُـلْ لَّكُـمْ لَـوْلاَ تُسَـبِّحُونَ} أي هلا تـذكرون اللـه تعـالى وتتوبون إليه من خبث نيتكم حيث عزمتم على منع الزكاة؟ {قَـالُواْ سُـبْحَٰنَ رَبِّنَآ} عن أن يجري في ملكه ما لا يشاؤه، {إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ} بالإقسام علـى جذ الجنة في الصباح ومنع المساكين وترك الاستثناء. {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَـىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ} أي يلوم بعضهم بعضاً يقول واحد منهم: أنت أشـرت علينـا بهذا الرأي ويقول الآخر: أنت الذي خوفتنا بالفقر ويقول الثالث: أنـت الـذي رغبتني في جمع المال. {قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ} أي يا هلاكنا هـذا وقـت منادمتك لنا إنا كنا متجـاوزين حـد اللـه بمنعنـا المسـاكين، {عَسَـىٰ رَبُّنَـآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْـراً مِّنْهَـآ} أي أن يعطينـا خيـراً مـن جنتنـا بـدلاً منهـا ببركـة التوبـة والاعتراف بالذنوب.

وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الباء وتشديد الدال {إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ} أي طالبون منه الخير، راجون عفوه وروي أنهم قالوا: إن أبدلنا الله خيـراً منهـا لنصنعن كما صنع أبونا، فتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، فأبدلهم الله تعالى من ليلتهم ما هو خير منها، فإن الله أمر جبريل عليه السـلام أن يقتلـع تلـك الجنة المحترقة، فيجعلهـا بزغـر مـن أرض الشـام، ويأخـذ مـن الشـام جنـة فيجعلها مكانها.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن القوم أخلصوا، وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم الله جنة يقال لها: الحيوان، فيهـا عنـب يحمـل البغـل منـه عنقوداً واحداً كم كبره. وقال أبو خالد اليماني: دخلت تلـك الجنـة، فرأيـت فيها كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم، {كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ} أي مثل الـذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة في صروان عذاب الدنيا لمن منع حق الله من ماله، {وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ} لمن لا يتوب {أَكْبَرُ} من عذاب الله في الدنيا، {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} أنه أكبر لاحترزوا عما يؤديهم إليه،

الآية: 34 – 48

{إِنَّ لِّلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ} أي في الآخرة {جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ}، أي جنات ليس لهم فيها إلا التنعم الخالص، لا يشويه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا.

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين: إن الله تعالى فضلنا عليكم في الدنيا فلا بد وأن يفضلنا عليكم في الآخرة، فإن لم يحصـل التفضيل فأقصى أمركـم أن تسـاوونا فأجـاب اللـه عـن هـذا الكلام بقـوله:

{أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ} أي أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين أي مساوين لهم في العطاء، {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أي أيّ شيء يحصل لكم يا أهل مكة، وأيّ حال يدعوكم إلى هذا الحكم هل هو صادر عن اختلال فكر أو اعوجاج رأي، {أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} أي بل ألكم كتاب نازل من السماء فيه تقرأون أن لكم في ذلك الكتاب ما تشتهون في الآخرة. وقرأ طلحة والضحاك «أن لكم» بفتح الهمزة، وهو منصوب ب «تدرسون» إلا أن في اسمها زيادة لام التأكيد، {أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا} أي أم لكم عهود مؤكدة بالأيمان، {بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ} والجار والمجرور إما متعلق ببالغة، أي أيمان تبلغ ذلك اليوم، وإما بالمقدر أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، ويكون معنى بالغة مؤكدة. وقرأ زيد بن علي والحسن «بالغة» بالنصب على الحال من «أيمان»، أو من الضمير في الظرف، {إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} وهذا جواب القسم، لأن المعنى أقسمنا لكم أيماناً موثقة أن لكم ما تحكمون به لأنفسكم في الآخرة، وهو أن تسووا بين المسلمين والكافرين، {سَلْهُمْ} يا أشرف الرسل: {أَيُّهُم بِذَٰلِكَ} الحكم الخارج عن العقول {زَعِيمٌ} أي قائم {أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ} أي أو هل لهم ناس يساعدونهم على صحة ذلك القول {فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ} أي بمن يشاركونهم في ذلك القول ويكفلونه لهم بصحته، {إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ} في دعواهم ويقال: المعنى: أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء الله يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب، فليأتوا بآلهتهم إن كانوا صادقون أن لهم ما قالوا، {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ} أي يوم يشتد الأمر.

قال أبو سعيد الضرير: أي يوم يكشف عن أصل الأمر أي تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها بحيث تصير عياناً. وقرىء «تكشف» بالتاء الفوقية على البناء للفاعل، أو المفعول والفعل للحال، أو للساعة أي يوم تشتد الحال، أو الساعة عن أمر. وقرىء «تكشف» بالتاء المضمومة وكسر الشين، أي يوم تدخل الحال في الكشف عن أمر كانوا في عمى منه في الدنيا. وقرىء «نكشف» بالنون {وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ} توبيخاً على تركهم إياه في الدنيا بعدما قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، {فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ} السجود، تبقى أصلابهم فقارة واحدة مثل حصون الحديد، {خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ} حال من واو «يدعون»، {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} أي تلحقهم ذلة شديدة بسبب أنهم ما كانوا مواظبين على خدمة مولاهم، {وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ} أي إلي الصلوات بالأذان والإقامة في الدنيا دعوة تكليف، {وَهُمْ سَٰلِمُونَ} أي أصحاء قادرون على الصلاة فلا يجيبون الداعي، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يجب المؤذن إلى إقامة الصلاة في الجماعة {فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ} أي خل يا أشرف الخلق بيني وبينهم فإني أكفيك أمرهم، {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ} أي سننزلهم إلى العذاب درجة فدرجة، {مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} أي كلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار، {وَأُمْلِى لَهُمْ} أي أمهلهم ليزدادوا إثماً {إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ} أي إن ستري لأسباب الهلاك عمن أريد إهلاكه، قوي لا يدفعه شيء ولا يطلع عليه أحد {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً} أي أم تلتمس من أهل مكة أجراً

دنيوياً على الإيمان، {فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} أي فهم لأجل ذلك مكلفون حملاً ثقيلاً من غرامة مالية يعطونكها، فيعرضون عنك {أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ} أي أم عندهم علم ما غاب عنهم، كأنه حضر في عقولهم {فَهُمْ يَكْتُبُونَ} على الله، أي يحكمون عليه بما شاءوا {فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} في إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم، {وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ} أي ولا يكن حالك يا أشرف الخلق كحال يونس عليه السلام من الضجر والمغاضبة فتبتلي ببلائه، {إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ} إذ نادى في بطن الحوت بقوله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وهو مملوء غماً كما قاله ابن عباس ومجاهد أو كرباً كما قاله عطاء وأبو مالك والفرق بين الغم والكرب أن الغم في القلب والكرب في الأنفاس،

الآية: 49 - 52

{لَّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ} أي لولا هذه النعمة التي هي توفيقه للتوبة وقبولها منه لطرح بالأرض الخالية من الأشجار مع وصف المذمومية. وقرىء «رحمة من ربه». وقرأ ابن هرمز والحسن «تداركه» بتشديد الدال. وقرأ ابن عباس وابن مسعود «تداركته»، {فَٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ} أي رد عليه الوحي بعد أن انقطع عنه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون، {فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ} أي الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلاً يكون تركه أولى.

روي أن هذه الآية نزلت في أحد حين حل برسول الله ما حل، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف. {وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ} أي أنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك شزراً، بحيث يكادون يزلون قدمك فيرمونك. وقرىء في السبعة «ليزلقونك» بضم الياء وفتحها. وقرىء «ليزهقونك».

روي أنه كان في بني أسد عيانون فأراد بعضهم أن يعين رسول الله، فنزلت هذه الآية. {لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ} أي وقت سماعهم بالقرآن، {وَيَقُولُونَ} لغاية حيرتهم في أمره صلى الله عليه وسلم {إِنَّهُ} أي محمداً {لَمَجْنُونٌ} فأجابهم الله تعالى بقوله: {وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}، أي وما هذا القرآن الذي يزعمون أنه دلالة جنونه صلى الله عليه وسلم إلا عظة للجن والإنس.